□ عُلُوُّ هِمَّة الشَّباب □

قال رسول الله ﷺ : «لا تزول قَدَما ابن آدم يومَ القيامة من عند ربِّه ، حتى يُسأل عن خمسٍ : عن عُمرِه فِيمَ أفناه ، وعن شبابه فيمَ أبلاه ، وعن مالِهِ من أين اكْتَسَبَهُ وفيم أنْفَقَه ، وماذا عملَ فيما علمَ»[1] .

ولله درُّ حفصة بنت سيرين حين قالت : يا معشر الشباب، اعملوا فإني رأيتُ العملَ في الشباب .

والحقُّ أنّ أمجادَ المتفوقين، وأشواط الصاعدين، إنما تَسْتَمِدُّ حركتها وبركتها من جهودهم أيام الشباب، واستغلالهم عُرَامَهُ وإقدامَهُ في السَّبْق والانطلاق. والشباب أخْصَبُ مراحل العمر ، وأجْدَرُها بحُسْن الإفادة وعِظَم الإجادة ، ومِنْ ثَمَّ كان على المرء أن يُقدِّم حسابًا عن حياته كلها ، وحسابًا خاصًّا عن طور الشباب وحده على أن الشباب وإن اكْتَنَفَتْه من طرفيْه المُتباعديْن : الطفولةُ والشيخوخة ، إلَّا أنه يصعُب وضْع حدود زمنيَّة لعهده السعيد !! فهناك رجالٌ تظلُّ وَقْدَةُ الشباب حارَّة في دمهم وإن أنافوا على الستين لا تنطفئ لهم بشاشة، ولا يكبو لهم أمل، ولا تفتُر لهم هِمَّة ، وهناك شباب يحبُون حَبْوًا على أوائل الطريق ؛ لا ترى في عيونهم بريقًا ، ولا في خطْوهم عزمًا ، شاختْ أفئدتُهم في مقتبل العمر ، وعاشوا في ربيع الحياة ، لا زَهْر ولا ثَمَر !!

ومن الأخطاء تصوُّر الشباب قُدرة جسد وفناء غريزة ، إن الشباب تَوَثُّبُ رُوحٍ واستنارةُ فِكرٍ ، وطَفْرَةُ أملٍ وصلابةُ عزيمةٍ . فترة الشباب في حياة الإنسان هي أحْفَلُ أطوار العمر بالمشاعر الحارَّة والعواطف الفائرة ، لكنَّها ليست عهد

---

(١) حسن : رواه الترمذي عن ابن مسعود ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧٢٩٩) .

العافية المكتملة في البدن الناضج فقط ، بل إنها كذلك عَهْد النَّزَعات النفسيَّة الجيَّاشة ، يمدُّها الخيال الخصْب والرجاءُ البعيد . والأُمَم تستغلُّ في شُبَّانها هذه القوى المذخورة ، وتُجنِّدها في ميادين الحرب والسلم ، لتُذَلِّل بها الصعب وتُقرِّب البعيد .

ونجاح الأمم يرجع إلى مقدار عُلُوّ هِمَم شبابها ، وإلى مقدار آمالهم وأعمالهم . ولله درُّ فتيةٍ من شباب الإسلام في ميادين البطولة صَلَوْا حَرَّها ، وحملوا عبئها ، واندفعوا بحماستهم الملتهبة وإقدامهم الرائع ، يخطُّون مصارع الأعداء ، ويرسمون لأُمَّتهم صُوَر التضحية والفداء .

ولله درُّ هاشم الرفاعي حين يقول :

مَلَكْنا هذه الدنيا القُرُونا ... وأخضَعَها جُدُودٌ خالدونا
وسَطَّرْنا صحائف مِن ضياءٍ ... فما نَسِيَ الزمانُ ولا نَسِينَا
بَنَيْنا حِقبَةً في الأرضِ مُلْكًا ... يُدَعِّمُهُ شبابٌ طامحونا
شبابٌ ذَلَّلُوا سُبُل المعالي ... وما عرفوا سوى الإسلام دينًا
تَعَهَّدَهُمْ فأنْبَتَهُم نَباتًا ... كريمًا طابَ في الدنيا غُصُونا
إذا شَهِدوا الوَغَى كانوا كُمَاةً ... يَدُكُّون المعاقلَ والحُصُونا
شبابٌ لم تُحطِّمْهُ اللَّيالي ... ولم يُسْلِمْ إلى الخَصْمِ العَرينا
وإن جَنَّ المساءُ فلا تراهم ... من الإشفاقِ إلَّا ساجدينا
كذلك أخْرَجَ الإسْلامُ قومي ... شبابًا مُخلِصًا حُرًّا أمينا
وعلَّمه الكرامة كيف تُبْنَى ... فيأبى أن يُقَيَّدَ أو يهونا
وما فَتِئ الزمانُ يدورُ حتى ... مضَى بالمجدِ قومٌ آخرونا
وأصبح لا يُرى في الرَّكْب قومي ... وقد عاشوا أئمَّتَهُ سنينا
وآلمني وآلم كُلَّ حُرٍّ ... سؤال الدهر أين المسلمونا
تُرى هل يَرجعُ الماضي فإني ... أذوبُ لذلك الماضي حنينا
دَعُوني من أمانٍ كاذباتٍ ... فلم أجدِ المُنَى إلَّا ظُنُونا

وهاتوا لي من الإيمان نورًا وقَوُّوا بين جَنْبَيَّ اليقينـا
أمُدُّ يَدِي فأنتزعُ الرَّواسي وأبني المجدَ مُؤْتَلِفًا مَكِينَا

قال الشيخ مصطفى صادق الرافعي في « وحي القلم » (٢/ ٢٣٠ – ٢٣٩) : « يا شباب العرب ، يقولون : إن في شباب العرب شيخوخةَ الهِمَم والعزائم ، فالشُّبَّان يمتدُّون في حياة الأمم وهم ينكمشون . وإن اللهـو قد خفَّ بهم حتى ثقُلتْ عليهم حياة الجدِّ ، فأهملوا المُمكِنات فرجعت لهم كالمستحيلات . وإن الهَزْل قد هوَّن عليهم كل صَعْبةٍ فاختصروها ، فإذا هزءُوا بالعدوِّ في كلمةٍ فكأنما هزموه في معركة . وإن الشاب منهم يكون رجُلًا تامًّا ، ورجولةُ جسمه تحتجُّ على طُفولةِ أعماله .

ويقولون : إن الأمر العظيم عند شباب العرب : ألَّا يحملوا أبدًا تَبِعَةَ أمرٍ عظيم . ويَزْعُمُون أنه أبْرَع مُقلِّد للغَرْب فِي الرذائل خاصَّة، وبهذا جَعَلَه الغرب كالحيوان محصورًا في طعامه وشرابه ولذَّاته .

يا شبابَ العرب : مَنْ غَيْرُكم يجعل النفوس قوانين صارمةً ، تكون المادَّة الأُولى فيها : قَدَرْنا لأنَّنا أَرَدْنا .

الشباب هو القُوَّة ، فالشمس لا تملأُ النهار في آخِره كما تملؤه في أوَّله . وفي الشباب نوعٌ من الحياة تظهر كلمة الموت عنده كأنها أُخت كلمة النوم . وللشباب طبيعةٌ أوَّلُ إدْراكِها الثقةُ بالبقاء، فأوَّل صفاتها الإصرارُ على العزم . وفي الشباب تصنع كلُّ شجرةٍ من أشجار الحياة أثمارها ؛ وبعد ذلك لا تصنع الأشجار كلُّها إلَّا خشبًا .

يا شباب العرب ، اجْعَلُوا رسالتَكُم : إمَّا أن يَحْيَا الشرق عزيزًا ، وإمَّا أن تموتوا . يا شباب العرب ، لم يكن العسير يَعْسُر على أسلافكم الأوَّلين ، كأنَّ في يدهم مفاتيح من العناصر يفتحون بها . أتُريدون معرفة السِّرِّ ؟ السرُّ أنهم ارتفعوا فوق ضعف المخلوق ، فصاروا عملًا من أعمال الخالق . غلبُوا على الدنيا لَمَّا غلبوا في أنفسهم معنى الفقر ومعنى الخوف والمعنى الأرضي ،

وعلَّمهم الدِّين كيف يعيشون باللذَّات السَّماويَّة ، التي وضعتْ في كلِّ قلبٍ عظمته وكبرياءه . واخترعهم الإيمان اختراعًا نفسيًّا ، عَلَامتُهُ المُسَجَّلَة على كلٍّ منهم هذه الكلمة : (لا يَذِلّ) .

حين يكون الفقرُ قلَّة المال ، يَفتقِر أكثر الناس ، وتَنْخذِل القوة الإنسانية وتهلك المواهب . ولكن حين يكون فقرَ العملِ الطَّيِّب ، يستطيع كلُّ إنسانٍ أن يَغْتَنِيَ ، وتنبعث القوة ، وتعمل كلُّ موهبةٍ . وحين يكون الخوف من نقص الحياة وآلامها ، تُفسِّر كلمةُ الخوف مائة رذيلةٍ غير الخوف . ولكن حين يكونُ من نقص الحياة الآخرة وعذابها ، تصبح الكلمةُ قانون الفضائل أجْمَع . هكذا اخترع الدِّين إنسانَهُ الكبير النَّفْس ، الذي لا يُقال فيه : انهزمت نَفْسُهُ .

يا شباب العرب، كانت حكمة العرب التي يعملون عليها: اطلب الموتَ تُوهب لك الحياةُ . والنفس إذا لم تخشَ الموت ، كانت غريزةُ الكفاح – أوَّل غرائزها – تعمل.وللكفاح غريزة تجعل الحياة كلَّها نصرًا ، إذْ لا تكون الفكرة معها إلَّا فكرة مُقاتِلة . غريزة الكفاح يا شباب ، هي التي جعلتِ الأسد لا يُسَمَّن كما تُسمَّن الشاةُ للذَّبْح . وإذا انكسرت يومًا فالحَجَر الصَّلْد إذا تَرَضْرَضَتْ منه قطعةٌ، كانت دليلًا يكشف للعين أن جميعَهُ حجرٌ صلْد .

فالقوَّة القوةَ يا شباب، القوة التي تقتُل أوَّل ما تقتُل فكرة الترف والتَّخنُّث، القوة الفاضلة المُتسامِية التي تصنع للأنصار في كلمة « نعم » معنى نعم ، القوة الصارمة النفَّاذة التي تصنع للأعداء في كلمة « لا » معنى لا .

يا شباب العرب ، اجعلوا رسالتكم : إما أن يحيا الشرق عزيزًا ، وإمَّا أن تموتوا ، إمَّا أن يحيا الإسلام عزيزًا ، وإما أن تموتوا .

آهِ لو عَلِم الشباب أن رُوح هذا الدين ليستْ: اعْتَقِدْ ولا تَعْتَقِد، ولكن افْعَلْ ولا تَفْعَل . لو أيقنَ الشبابُ أن فرائض هذا الدين ، ليست إلَّا وسائل عملية لامتلاء النَّفْس بمعاني التقديس ، لو فَهِم الشبابُ أنْ ليس في الكون إلَّا هذه

المعاني ، تجعل النَّفْس فوق المادَّة ، وفوق الخوف ، وفوق الذُّلّ ، وفوق الموت نفسه » .

فلا وألف لا للشباب الذي يجعلُ الشبابَ موقفَ بلادةٍ ، فلا يخطو إلى الرجولة ، فيبقى خوّارًا لا يستطيع أن يحمل أثقالًا مع أثقاله ، ويَسْتَوْطِئ العَجْز والخُمُول ، فلا يكون إلَّا قاعِدَ الهِمَّة ، رخْو العزيمة ، ضُجَعَةً لا يَمْشي ، نُوَمَةً لا يَنْتَهِض ، مستريحًا لا يعمل . وما ذهابُ الحارسِ عن مكانٍ إلَّا دعوة للصوص إليه .

من فُسُولَةِ طبْع هذا الشباب ولؤمه ودناءته ، أن يهرب من ميدانه . ومن سُقُوط نَفْسه ، أن يرضى ذُلَّ دينه ووطنه .

إن الجمل إذا اسْتَنْوق تخَنَّث ولان وخضع ، ولكنَّه يَحْمِل . وهؤلاء إذا استنوقوا تخنَّثوا ولانوا وخضعوا ، وأَبَوْا أن يَحْملوا .

هذا الجمل الذي اسْتَنْوَق : هذا الشباب المُخنَّث هو شباب كرة القدم :

أمضى الجسور إلى العُلا ... بزماننا كـرة القـدمْ
تحتـلُّ صَدْرَ حياتنـا ... وحديثُها في كلِّ فَمْ
وهي الطريقُ لمَنْ يريـ ... ـد خميلةً فوقَ القِمَمْ
أرأيتَ أشهـرَ عنْدَنـا ... من لَاعِبِي كرةِ القدمْ ؟
أهُـمُ أشدُّ توهُّجًـا ... أم نارُ بَرْقٍ في عَلَمْ ؟
لهمُ الجبايـةُ والعطـا ... ءُ بلا حدودٍ والكـرمْ
لهـمُ المزايا والهبـا ... تُ وما تجودُ به الهِمَمْ

كـرة القـدم

النَّاسُ تسهرُ عندهـا ... مبهورةً حتى الصباحْ
وإذا دعا داعي الجِها ... دِ وقال حَيَّ على الفلاحْ
غطَّ الجميعُ بنومهـم ... فوزُ الفريقِ هو الفلاحْ

فوزُ الفريق هو السّبيـ ـلُ إلى الحضارةِ والصَّلاحْ

كـرة القـدم

صارتْ أجلَّ أُمورنـا وحَياتِنا هـذا الزَّمَـنْ

ما عاد يَشْغلُنا سوا ها في الخَفاءِ وفي العَلَنْ

أكلتْ عقولَ شبابنـا ويهودُ تجتاحُ المُدُنْ

واللّاعِبُ المِقْدامُ تَصْـ ـنَعُ رِجْلُهُ مجدَ الوطنْ

عَجبًا لآلافِ الشبـا ب وإنَّهم أهْلُ الشَّمَمْ

صُرِفوا إلى الكرة الحَقيـ ـرةِ فاستُبيح لهم غَنَمْ

دَخَلَ العدوُّ بلادَهـم وضجيجُها زَرَعَ الصَّمَمْ

أيُسَجِّـل التـاريخُ أنَّـــا أُمَّــةٌ مُسْتَهْتِـرَهْ

شَهِدَتْ سُقوطَ بلادِها وعيونُها فوقَ الكُرَهْ(١)

وسيَذْكُر التاريخ بأحرفٍ من نور عُلاة الهِمَم من الشباب الذين غيروا مجرى التاريخ .

أسامة بن زَيْد : الحِبُّ بن الحِبّ رضي الله عنهما :

إذا القومُ قالوا مَنْ فَتًى خِلْتُ أنَّني عُنِيتُ فلم أكْسَلْ و لم أتبَلَّدِ

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أمَّر رسول الله ﷺ أسامة على قومٍ ، فطعنوا في إمارته ، فقال : « إن تَطْعَنُوا في إمارتِهِ فقد طَعَنْتم في إمارةِ أبيهِ مِن قَبْلِهِ ، وأيْمُ الله لقد كان خليقًا للإمارة ، وإن كان مِنْ أحبِّ الناسِ إليَّ ، وإن هذا لَمِنْ أحبِّ الناسِ إليَّ بَعْدَهُ »(٢) .

---

(١) قصيدة « كرة القدم » ، من ديوان « صور من بلادي » ، للدكتور وليد قصاب صـ ١٠١ - ١٠٤ . مؤسسة الرسالة .

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي ، وأحمد في فضائل الصحابة ، وابن سعد في الطبقات .

وعن أسامة بن زيد ، حدَّث عن النبي ﷺ أنَّه كان يأخُذه والحَسَنَ فيقول : « اللَّهُمَّ أحِبَّهُما فإني أُحِبُّهما »(١) .

وعن عائشة قالت : عَثَرَ أسامةُ بعَتَبَةِ الباب ، فشُجَّ في وجهه ، فقال لي رسول الله ﷺ « أميطِي عنه الأذى » ، فقَذِرْتُهُ ، فجَعَل يَمُصُّ الدمَ ويَمُجُّه عن وجهه، ويقول: «لو كان أسامةُ جاريةً؛ لَكَسَوْتُهُ وحَلَّيْتُهُ حتى أُنَفِّقَهُ»(٢) .

وعن عائشة أُمِّ المؤمنين قالت : أراد النبي ﷺ أن يُنَحِّي مخاطَ أسامة . قالت عائشةُ: دعني حتى أكون أنا الذي أفْعَلُ. قال: «يا عائشة، أحِبِّيهِ فإني أُحِبُّهُ »(٣) .

وعن أسامة بن زيد قال : لَمَّا ثَقُلَ رسولُ الله ﷺ ، هبطتُ وهبطَ الناسُ معي إلى المدينة ، فدخلتُ على رسول الله ﷺ قدْ أصْمَتَ فلا يَتكلَّم ، فجعل يَرفعُ يَدَيْهِ إلى السماء ثم يَصُبُّها عليَّ ، أعْرِفُ أنَّه يدعو لي(٤) .

وفي حديث المخزوميَّة التي سرقتْ : أنَّ قريشًا أهمَّتْهم المرأة المخزومية فقالوا : مَنْ يُكلِّم فيها رسول الله ﷺ ، ومَنْ يَجترِئ عليه إلَّا أسامة حِبّ رسول الله ﷺ . فقد كانوا يُسمُّون أسامة (الحِبّ ابن الحِبّ) . ودخلَ رسولُ الله ﷺ مكة يوم الفتح وقد أرْدَفَ أسامة خلفه . وكان عمر رضي الله عنه يُفضِّله في العطاء على عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

وكان رضي الله عنه على حداثة سِنِّه، مؤمنًا صُلبًا، ومُسلمًا قويًّا ، يحمل كلَّ تَبِعاتِ إيمانه ودينه ، في ولاءٍ مكينٍ ، وعزيمةٍ قاهرةٍ جعلتْه قريبًا من

(١) رواه البخاري ، والنسائي في الفضائل ، وابن سعد في الطبقات .
(٢) صحيح لغيره : رواه ابن أبي شيبة في المصنف ، وابن ماجه ، وأحمد ، وأبو يعلى ، وابن سعد في الطبقات .
(٣) حسن : رواه الترمذي .
(٤) حسن : رواه أحمد في المسند وفي فضائل الصحابة ، والترمذي ، والطبراني في الكبير .

قلب رسول الله ﷺ ، وكبيرًا في عَيْنَيْهِ .

وفي سِنٍّ مبكرةٍ ، لم تُجاوِز العشرين ، أمَّر الرسول ﷺ أسامةَ بن زيد على جيشٍ ، بين أفراده وجنوده أبو بكر وعمر !! وسَرَتْ همهمةٌ بين نفر من المسلمين تَعَاظَمَهُم الأمر ، واستكثروا على الفتى الشاب إمارةَ جيشٍ فيه شيوخُ الأنصارِ وكبارُ المُهاجرين، فقال رسول الله ﷺ بالحديث الذي ذكرْناه في أول الترجمة: « إن تطعنوا في إمارته ... » .

« بعثَ رسولُ الله ﷺ أسامة على جيش المسلمين إلى حيث قُتل أبوه وأصحابُه ، وأَمَرَهُ أن يُغير على « أُبْنَى » بالسّراة ناحية البلقاء ، وقيل : إلى آبل الزيت بنفس الجهة ، وعَقَدَ له لواء في آخِر يوم من صفر سنة ١١ هـ ، ولكنْ مَرِض الرسول ﷺ مَرَضَهُ الذي قَبَضَهُ الله إليه فيه ، فتأخَّر خروجُ الجيش حتى هلال ربيع الآخِر سنة ١١ هـ . وسار أسامةُ بجيشه ثلاثة آلاف يُسرع السيْر على طريق ذي المروة ووادي القرى، في اتجاه «أُبْنى» و «آبل الزيت» من نواحي مُؤْتَة ، حتى إذا توسَّط مواطن قُضاعة توقَّف يسيرًا، وبعث فرسانَهُ لينهضوا الثابتين منهم على إسلامهم، ويُعينوهم على مَنِ ارتدَّ، وهربَ المُرتدُّون إلى مكانٍ بعيد .. إلى « دومة الجندل » ، فاجتمعوا بها حول وديعة الكلبي ، لم تكن دومة الجندل من أهداف جيش أسامة ، ولا على طريقه ، فما إنْ عادت إليه خيولُهُ ، حتى مضى بجيشه إلى « الحمقتين » فأغار عليها ، وكان بها بنو الضُّبَيْب من جذام ، وبنو خيليل [أو : حيليل ، أو حليل] من لخم ، فهَزَمَ مَنْ هناك حتى « آبل » في إغارةٍ شديدةٍ سريعةٍ ، وسَبَى وحرقَ بالنار منازلهم وحَرْثَهم ونَخْلهم ، حتى صارتْ أعاصير من الدُّخان ، وأَجَالَ الخيل في نواحيهم ، وقضى يومَهُ في تعبئة ما أصابوا من غنائم ، ثم لم يقُم وإنما كرَّ راجعًا من مساء يومه ، حتى قَدِمَ وادي القرى في تسع ليالٍ ، ثم قدم المدينة سالمًا غانمًا وقد غاب عنها خمسة وثلاثين يومًا ، وقيل : غاب شهرين وأيامًا ، وعاد الجيش بلا ضحايا .. وقال عنه المسلمون يومئذٍ : « ما رأينا جيشًا أسْلَمَ

من جيش أسامة »[١] . وكان هرقل بحمص حين بَلَغَهُ ما صنعَ أسامة بعملائه من العرب النازلين بأطراف إمبراطوريته ، فدعا بطارقتَهُ وقال لهم : « هذا الذي حذَّرْتُكم فأبَيْتم أن تقبلوه منِّي ، قد صارت العرب تأتي من مسيرةِ شهرٍ فتُغِير عليكم ، ثم تخرج من ساعتها ولم تُكْلَم »[٢] . أي تُجرح .

وأيقنَ هرقل أن المسلمين لن يكفُّوا حتى ينتزعوا الشام من يده.لقد حقق جيش أسامة هدفًا جليلَ الأثر ، وضرورة حربيةً كان يلزم المسلمين القيام بها وهو إجلاء مُرْتَدّي قُضاعة عن طريق الشام ، فلو أنهم بَقُوا في مواطنهم لَازْدادَ الخطر على المدينة بصورةٍ مخيفة ، فلو تحالفوا مع مرتدّي عبس وذبيان لَسَاءَ مركز المدينة أيّما سوء ، فكان مُضيّ أسامة نحو « البلقاء » من حدود الشام ، له أكبرُ الأثر في تخويف بطون قضاعة المرتدَّة ، ومَنعها من أن تُفكِّر في الزحْف جنوبًا ، فإنهم لو فعلوا لكان جيش أسامة خطرًا داهمًا خلف ظهورهم، يعود إليهم في أي وقت ، ولذلك كان ردُّ فِعْلِهم أنهم اختاروا الفرار إلى بعيد .. إلى دومة الجندل . لقد كان بَعْث أسامة حَلْقة تربط بين العمليات الحربية في عصر النبوة ، وبين عمليات القضاء على الرِّدَّة في عهد أبي بكر ، بل وأبْعَد من ذلك كان حلْقةً تربط هذا وذاك بما تلا من عمليّاتٍ استهدفتْ فتح الشام .

عليّ بن أبي طالب : مثالٌ لعلوّ الهمَّة ، وقتْله لصناديد قريش وهو شابٌّ :

فقد قَتَل حيدرةُ الأبطالَ أميرُ المؤمنين عليٌّ – وهو شابٌّ في يوم بدر – شيبة بن ربيعة ، واشترك في قتْل الوليد بن عُتْبة ، وقتل بعدهما في بدر : العاص ابن سعيد، وعامرَ بن عبد الله ، وطعيمة بن عديّ ، وزمعة بن الأسود ، ونوفلَ ابن خويلد ، وعقيل بن الأسود ، والنضر بن الحارث ، وعمير بن عثمان ، ومسعود بن أُميّة ، وأبا قيس بن الفاكهة ، وحاجب بن السائب ، وعبد الله

(١) رجال حول الرسول صـ ٤٤٩ .

(٢) الطريق إلى دمشق ، لأحمد عادل كمال صـ ١٥٥ . دار النفائس .

ابن المنذر ، والعاص بن منبّه ، وأوس بن معير ، خمسة عشر رجلًا قتلهم حيدرة في يوم بدر .

وفي أُحُدٍ يقتل عليٌّ : أبا أُمَيَّةَ بن أبي حُذيفة ، وعبد الله بن حميد بن زهير . وفي يوم الأحزاب يقتل عليٌّ : عمرَو بن عبد ودّ ؛ فارس قريش في يوم الأحزاب « كبْش الكتيبة » ، وكبَّر المسلمون لقتل كبش الكتيبة .. فلله درُّ عليٍّ سيِّد شباب المسلمين يومئذٍ .

الحَسَن والحُسَيْن سيِّدا شبابِ أهل الجنَّة :

عن أبي سعيد الخُدْري قال : قال رسول الله ﷺ : « الحَسَنُ والحُسَيْنُ سيِّدا شبابِ أهْل الجنَّة »[(١)] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعتُ النبي ﷺ يقول : « هما ريحانتايَ مِنَ الدُّنيا »[(٢)] .

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال : سمعتُ النبي ﷺ على المنبر ، والحَسَنُ إلى جنبه ، ينظر إلى الناس مرَّةً وإليه مرَّةً ويقول : « ابني هذا سيِّدٌ ، ولعلَّ الله أن يُصلِح به بين فئتيْن من المسلمين »[(٣)] .

فرضي الله عن الحسن بن عليٍّ ، أشْبَه الناس بالنبي ﷺ ، الذي حقَنَ الله على يديه دماء المسلمين ، وإن جماجم أهل العراق تسير بين يديْه . ورضي الله عن الحسين بن عليٍّ ؛ الآمِر بالمعروف الناهي عن المنكر ، حتى القتل ، نبراسًا لأهل الحقّ ، الثَّابتين على مبادئهم . ما تزيَّنت الأرضُ إلَّا بِمِثْلهما من عُلاة الهِمَم.

---

(١) حسن : أخرجه أحمد ، والترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح . والحاكم ، وأبو يعلى ، والنسائي في فضائل الصحابة ، وابن أبي شيبة في المصنف .

(٢) رواه البخاري والترمذي وأحمد ، والنسائي في الخصائص ، والطيالسي وابن أبي شيبة .

(٣) رواه البخاري وأبو داود والترمذي والطيالسي ، والنسائي في الفضائل ، وأحمد في فضائل الصحابة .

مُعاذ بن جَبَل مقدام العلماء :

عن محمد بن كعب القُرَظي قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ معاذ ابن جبل أمام العلماء رَتْوَة »[(١)] .

عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود ، أنه قال : إن مُعاذًا كان أُمَّةً قانتًا لله . قال : فقال رجلٌ من أشجع ، يُقال له فروة بن نوفل : نَسِيَ ، إنما ذاك إبراهيم . قال : فقال عبدُ الله : مَنْ نَسِيَ ؟! إنَّما كُنَّا نُشَبِّهُهُ بإبراهيم . قال : وسُئل عبد الله عن الأُمَّة، فقال: مُعَلِّم الخير، والقانت: المُطيع لله ورسوله[(٢)] .

وعن مسروق قال : ذُكِر عبد الله بن مسعود عند عبد الله بن عمرو فقال : ذاك رجلٌ لا أزال أُحِبُّه بعد ما سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « اسْتَقْرِئُوا القرآن من أربعةٍ : من عبد الله بن مسعود - فَبَدَأَ به - وسالم مولى أبي حُذيفة ، وأُبيّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل »[(٣)] . قال : لا أدري بَدَأَ بأُبَيٍّ أو بُمعاذٍ .

وفي الحديث أنَّ رسول الله ﷺ أخَذَ بيد معاذ وقال : « يا معاذ ، والله إنِّي لَأُحِبُّك ، والله إني لَأُحِبُّك ... » .

لله دَرُّه من سيِّد من سادات شباب الصحابة، له أسبقيَّتُهُ، وإيمانُه ويقينُه، على أن آلَقَ مزاياه وأعظمَ خصائصه ، كان فِقْهه ، وهو أعْلَمُ الأُمَّة بالحلال والحرام كما شَهِدَ له الرسول ﷺ ، ويقول عمر : « لولا معاذ بن جبل لَهَلكَ عمر » . وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا تحدَّثوا وفيهم معاذ بن جبل ، نظروا إليه هيبةً له ، لله درُّه .... كأنَّما كان يخرج من فمه نورٌ ولؤلؤ . بلغ منزلةً

---

(١) صحيح بمجموع طرقه : أخرجه ابن سعد في الطبقات ، وله شاهد عند ابن أبي شيبة وأبي نعيم والحاكم .

(٢) موقوف صحيح : أخرجه ابن جرير في التفسير ، وابن سعد في الطبقات ، والحاكم وصحّحه ووافقه الذهبي ، وأبو نعيم .

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي والطيالسي ، والنسائي في الفضائل .

عظيمة في العلم ، وفي إجلال المسلمين له ، أيام الرسول ﷺ وبعد مماته وهو شابٌّ ، فلقد مات معاذ في خلافة عمر ، ولم يُجاوز من العمر ثلاثًا وثلاثين سنةً أو ثمانية وعشرين سنة ، فأيّ علوّ هِمَّةٍ كان عند مقدام العلماء حتى يُحصِّل ما حصَّله في تسع سنوات .

ولله درُّ هذا الرَّبَّانيّ المشتاق إلى ربِّه وهو يُردِّد في السكرات : « اخْنُقْ خَنْقَك ، فوعِزَّتك إنِّي أُحِبُّك ، مرحبًا بالموتِ حبيبٍ جاء على فاقةٍ » .

مُصْعَب بن عُمَيْر الفاتح الأوَّل للمدينة ، والدَّاعية الشهيد :

نبراس الدُّعاة وإمام الفاتحين .. الفتى المُنعَّم الذي صاغَهُ الإسلام على يديه ، تقدَّم حين نادتِ المغارم ، وذهب إلى لقاء ربِّه قبل مجيء الغنائم ، اختاره الله شهيدًا بين يديْ رسول الله ﷺ بعد أن أسلم على يديه: أسيد بن حضير الذي تنزَّلتِ الملائكةُ لتلاوتِهِ القرآن، وسعد بن معاذ الذي اهتزَّ لموتِهِ عرشُ الرحمن.. إنه مصعب غُرَّة فتيان قريش وأوفاهم بهاءً وجمالًا وشبابًا .. « أعْطَرُ أهْلِ مكَّةَ » حديثُ حِسانِ مكة ولؤلؤةُ نَدَواتِها ومجالِسِها ، وبَعْدَ الإسلام صار أُسطورةً من أساطير الإيمان والفداء ، قصة حياته شرفٌ لبني الإنسان جميعًا .

لاقَى ما لاقى مِن أُمِّه وقد كان فتاها المُدلَّل، هاجر إلى الحبشة. مصعب الذي كانت ثيابه كزهور الحديقة؛ نَضْرَةً وألَقًا وعِطرًا ، يرتدي بعد ذلك المُرقَّع البالي ، خرج من النّعمة الوارِفَة إلى شظف العيش والفاقة ، وأصبح الفتى المُتأنِّق المُعطر لا يُرى إلَّا مُرتديًا أخْشَنَ الثيابِ ، يأكُل يومًا ويجوع أيامًا ، ولكنَّ رُوحَهُ المُتأنِّقة بسموِّ العقيدة، والمُتألِّقة بنور الله، جعلتْ منه إنسانًا يملأ العين إجلالًا، والأنْفسَ رَوْعَةً .

اختاره رسول الله ﷺ لأعظم مهمَّةٍ في حينها ؛ أن يكون سفيره إلى المدينة ، يُفَقِّه الأنصار الذين آمنوا وبايعوا الرسول ﷺ عند العقبة ، ويفتح المدينة بالقرآن ، ويُعِدُّها ليوم الهجرة العظيم ، وقد كانت هذه السِّفارة أخطر قضايا الساعة ، وأُلقي ين يَدي مصعب بمصير الإسلام في المدينة التي ستكون

دار الهجرة، وحمل مصعبٌ الشابُّ- مصعبُ الخير- الأمانة، ونجح نجاحًا منقطع النظير ، نجاحًا هو له أهْلٌ ، وبه جديرٌ .

قال البراء : أوَّل مَنْ قَدِم علينا ، مصعبُ بن عمير وابنُ أُمِّ مكتوم ، ثم قدِم علينا عمَّارُ بن ياسر وبلالٌ ، رضي الله عنهم . رواه البخاري .

في مِثْل هدوء البحر وقوّته ، وتهلُّل ضوء الفجر ووَدَاعَتِه ، انساب نورُ الإيمان على يد مصعبٍ إلى سادات الأنصار : أسيد بن حضير ، وسعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة .. لله درُّه من شابٍّ يقود ويُسَيِّر جبال الإيمـان ، ويكون في ميزان حسناته الأنصارُ من الأوس والخزرج .

ويشهد مصعب غزوة بدر لينال شرف البدريَّة .. وفي يوم أُحُدٍ كان حامل اللواء ، قال ابن سعد : « حَمَل مصعب بن عمير اللّواء يوم أُحد ، فلمَّا جال المسلمون ثبتَ به مصعب ، فأقبل ابنُ قمئة وهو فارس ، فضربَهُ على يده اليُمنى فقَطَعَها ، ومصعب يقول : ﴿ **وما محمدٌ إلَّا رسولٌ قد خَلَتْ من قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾ وأخَذَ اللِّواءَ بيده اليسرى وحَنَا عليه، فضرب يده اليسرى فقَطَعَها، فحنا على اللواء وضمَّه بعَضُدَيْهِ إلى صدره وهو يقول : ﴿ **وما محمدٌ إلَّا رسولٌ قد خلتْ من قبله الرسل** ﴾ ثم حَمَل عليه الثالثة بالرُّمح فأنْفَذَهُ واندقَّ الرمحُ ، ووقع مصعبٌ ، وسقط اللواء .. ووقعَ مصعبٌ .. كوكبُ الشهداء ، ومن كان ذِكْرُه عِطرًا للحياة .

قال أبو وائل : عُدْنا خَبَّابًا فقال : هاجرْنا مع النبي ﷺ نُريد وجه الله ، فوقَع أجرُنا على الله ، فمنَّا مَنْ مضى لم يأخُذ من أجره شيئًا ؛ منهم مصعب ابن عمير ، قُتل يوم أحد وتَرَك نَمِرةً ، فكُنَّا إذا غَطَّيْنا بها رأسَهُ بَدَتْ رِجْلاه ، وإذا غطيْنا رِجْلَيْه بَدَا رأسُه ، فأمَرَنا رسول الله ﷺ أن نُغطِّي رأسَه ونَجْعل على رِجْليه شيئًا من إذْخِر، ومنَّا من أيْنَعَتْ له ثمرتُهُ فهو يَهْدِبُها »[1][2] .

(١) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي ، والترمذي ، وأحمد ، وأبو داود ، وابن سعد في الطبقات .

(٢) يهدبها : يجتنيها .

وعن سعد بن إبراهيم ، عن أبيه إبراهيم ، أن عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - أُتِيَ بطعام - وكان صائمًا - فقال : قُتِل مصعب بن عمير ، وهو خيرٌ منّي ، كُفِّن في بُرْدَة ؛ إن غُطِّيَ رأسُه بَدَتْ رِجْلاه ، وإن غُطِّيَ رجلاه بَدَا رأسُه . وأراه قال : وقُتِل حمزة ، وهو خيرٌ مني .. ثم بُسط لنا من الدنيا ما بُسِط - أو قال : أُعْطِينا من الدُّنيا ما أُعطِينا - وقد خَشِينا أن تكون حسناتُنا عُجِّلَت لنا.ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام(١) .

يامصعبُ يا بنَ عُمَيْرْ
لا أعرِفُ مِن أيِّ الطرقاتِ أسِيرُ إليكْ
وأنت الفاتِحُ للطُّرقاتِ
لا أعرفُ مِن أيِّ الأنوارِ أُطِلُّ عليك
وأنت المُشرِقُ بالهالاتِ
لا أعرفُ من أيِّ الآياتِ أمد عليك
وأنت الفائِزُ بالآيات
يا جبلَ الرحمةِ والبَرَكاتْ
يا مصعبُ .. يا نَفْحَةَ هذا الدِّينْ
ومعراج الطُّهرِ إذا خالَطَ طُهْر القلبِ ووافاهُ الله
يا ظِلًّا مَدَّ مَداه
مُذْ آمَنَ أن الموتَ حَيَاهْ
لَيَّنْتَ صخورَ الأرض .. وليَّنتَ صناديدَ الكُفْرِ
وأخْلَيْتَ الخيطَ الأبيض
من بينِ الخيط الأسودِ وأبَنْتَ هُداه
مِفتاحُ الحكمةِ عندك أسْبَقُ مِن مفتاح الجاه

---

(١) رواه البخاري .

وأَحَبَّك مَنْ سَمِعَ بوجهك
وأحبَّك مَن شاهَدَ وَجْهَك .. وتعلَّق في رؤياه
الأرضُ أحَبَّتْ خطْوَك فيها
فأَحَبَّك بَدْر
وأحبَّك أُحُد
وأَحَبَّتْ نَعْلَك كلُّ حَصَاهْ
فالوجهُ الفاتِحُ للإيمان دِيارَ الكُفرْ
الماهِدُ أرضَ رسول الله
قد رَضِيَ الله عليه
وأشرقَ ملءَ الكَوْنِ تُقاه
وإذا ما سَجَدَ القلبُ أطلَّ على الجنَّاتِ هُداه
يا مصعبُ يا بن عُمَيْرْ
كم ضاءتْ منك دُرُوبُ اللَّيْلِ
وضاعتْ منك ظُهورُ الخيل
وأُشْرِبتَ البهجةَ والرَّيْحانْ
مَنْ كان يظُنُّ القادِمَ مِنْ تاريخِ العِطْر
يُغَيِّرُ وجهَ الأرض
ويَغْسِلُ يَثْرِبَ بالقُرآنْ
أبقاكَ الله عزيزَ الجانب
رَيَّانَ الرَّأْي
مُضِيءَ الحُجَّةِ والبُرهانْ
ورسولُ الله الفوَّاح بحُبِّ الخيرْ
قد ألقَى بين يديكَ مصيرَ الأُمَّة
في زمن يَبتلِعُ الناسَ بنَهْمٍ كالطُّوفانِ

والدعوةُ بين يديْكَ تردُّ الرُّوحَ إلى الإنسان
الله عليك
وقد مَدَّ الخطو إليك « أُسيْد »
فعرضتَ النُّورَ عليه
« إنْ راقَكَ ما ندعوك إليه قَبِلْتَ »
وإنْ لم يُعجبكَ كَفَفْنا عنك
وفارَقْناك
وعرضتَ الرُّوحَ .. ورُوح القُدس
يَهزُّ القلبَ العاقرَ
ويبُثُّ الأمَلَ الشاكِرَ
وارتجَّتْ أرضُ مدينتِكَ البِكْر بإسلامِ « أُسيْد »
في يَثْرِبَ كان الناسْ
أقْرَبَ للكفرِ من الإيمانِ
ويهودٌ كانت تمتلكُ السُّوقْ
والعربُ تُراهِنُ عمَّا ببطونِ النُّوقْ
وقَدِمتَ إليها تنفخُ فيها
فإذا بالطُّهْرِ الأوَّلِ يَنْبُتُ بنواحيها
وإذا بك تمتلكُ الصَّفْوَة
وتُغَلِّقُ سُبُلَ الشيطانِ
فغدا « ابن زُرارَةَ » من جُندِك .. وتلاه « أُسيد »
واكتملتْ كوكبةُ النورِ فآمن « سعدُ بنُ مُعاذ »
فغدا للحَقِّ فؤادٌ
وغدا للحقِّ يَدَان
وانحازَ الأوسُ إليك وعبد الأشْهَل

وانحازتْ دُورُ مدينتِكَ إليك
وصرتَ كبيرًا
ودخلتَ على القومِ دُخُولَ الصُّبحِ
يُميطُ الظُّلمةَ والبُهْتانْ
وكبارُ القوم تَدَاعوْا
قد دخلوا بالكفرِ عليك .. وهم قد خَرَجُوا بالإيمانْ
يا مصعب يا بن عُمَيْرْ
يا مَن غَيَّرتَ موازينَ المجدِ وكنتَ الحاملَ للميزانْ
يا واصل أرضِ الإنسان بنورِ الحقِّ المنَّانْ
فكنستَ الأرضَ مِن الرِّجسِ الكالِح فيها
وحملتَ من الحكمة ما لا يَقدِرُ بشرٌ أن يَحمِلَ مِثْلَه
وحملتَ لواءَ النُّورِ ببَدْرِ
وقطعتَ شرايينَ أُخوَّتِكَ الأُولى
وشددتَ إسارَ أخيك
وكانت عُروتُك الوثقى
بالله أشدَّ وأبقَى
وأَجَلْتَ النورَ بيثربَ ووَصلْتَ الأنفُسَ والأرحامْ
وكُنتَ الضوءَ القادِمَ .. بعد سنينِ الإظلامْ
يا مصعبُ يا بن عُمَيْرْ
يا قَدَمَ الخير
يا فاتِحَ أرضِ الله بسِرِّ التوحيدِ الناصِع
قد كانت يثربُ ظُلُماتٍ في بحرٍ لُجِّيٍّ .. يَغشاهُ الموج
ومِنْ فوقِ الموجِ سحابٌ
فَنَثَرْتَ على الناسِ الآيَ

وأحييتَ صروحَ الأركانْ
يا مصعبُ يا بن عُمَيْر
أخجَلَني فيك الحرفُ .. تقاصَرَ دونك
لا تَسَعُكَ هذي الأوزانْ
أسترِقُ السَّمْعَ .. أُناشِدُك عبيرَ الرِّضوانْ
قد صاحتْ في أُحُدٍ « حَمْنَةُ »(١) واستلَّتْ فيك الأحزان
وتخضَّل حُزنُ أميرتِك
فواساها المختارُ بفَيْضٍ من طلٍّ كرامتِهِ الدَّافِقْ
يا نِعمَ الزَّوج
و « إنَّ الزَّوْجَ لَبِمَكَانْ »
يا مصعبُ يا بن عُمَيْر
شدُّوك بثوبِكَ في أُحُدٍ
فتقاصَرَ عنكَ .. وتَقْصُرُ عنك ثيابُ الأرضِ
فأنت الناسِجُ للإنسان ثيابَ الحكمةِ يا لُقْمانْ
يا صفوةَ خيرِ الخَلْقِ
مِن بين يدَيْهِ خرجتَ صباحًا
ونزلتَ على الأرضِ صلاةً
وملأتَ الأرضَ فَلاحًا
ورسولُ الله أحَبَّك حُبًّا ما كان لغيرك
فاختارك بين يدَيْهِ شهيدًا

---

(١) « حمنة بنت جحش » زوجُ مصعب ، حين حملوا إليها نبأ استشهاد خالها حمزة وأخيها عبد الله بن جحش ، حمدتْ واسترجعتْ ، وحين حمل إليها استشهاد زوجها مصعب ، بكت وصاحت ، فقال رسول الله ﷺ : « دَعُوها ؛ فإنَّ الزَّوْجَ من زوْجِهِ لَبِمَكَانٍ » .

يا قمرًا في عينيْهِ تألق في عِلِّيين
تعلَّق في صدرِ المختارِ وِشاحا
يا مصعب يا بن عُمير
يا قَدَمَ الخير
هل تَقبلُ أن أخدمَ - في الله - جوادَكْ
هل تقبلُ أن ألمسَ سيفَك كي أذكُرَ في الله جهادَكْ
هل تقبلُ أن أُصبِحَ يومًا
في موكبِ مَنْ بايَعَك .. وجاهَدَ بين يديْكْ
هل تقبلُ أن أمسحَ وجهي بغُبارٍ في قدميْكْ
هل تقبلْ
فاقْبَلْنِي
يا مَن أحببتُك
وتقبَّل منك الله[1]

زيد بن ثابت : جامِع القرآن ، رضي الله عنه :

عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال : جمعَ القرآن على عهد النبي ﷺ أربعةٌ كلُّهم من الأنصار : أُبيٌّ،ومعاذ بن جبل ، وأبو زيد ، وزيد بن ثابت . قلت لأنسٍ : مَنْ أبو زيد ؟ قال : أَحَدُ عُمُومتي[2] .

«حين تُنثر زهور التكريم على ذكرى المبارَكين ، الذين يرجع إليهم فَضْلُ جمْع القرآن وترتيبِهِ وحفظِهِ ، فإن حظَّ زيد بن ثابت من تلك الزهور لَحَظٌّ عظيمٌ ؛

(١) قصيدة « مصعب بن عمير » ، من ديوان « رسالة إلى سيف الله المسلول » ، لمحمود خليل ، من صـ ٥٣ - ٥٩ ، دار الصحوة .

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد وأبو يعلى والطيالسي ، والنسائي في الفضائل .

فلقد ادَّخرتْ له المقاديرُ شرفَ مهمَّةٍ من أنبل المهامِّ في تاريخ الإسلام كلِّه ، مهمَّة جَمْع القرآن الكريم وهو شابٌّ .

عن زيد بن ثابت قال : أرْسَلَ إليَّ أبو بكرٍ الصدِّيقُ مَقْتَلَ أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكرٍ رضي الله عنه : إن عمر أتاني فقال : إن القتْل قد استحرَّ يوم اليمامة بقُراء القرآن ، وإني أخشى إن استحرَّ القتلُ بالقُرَّاء بالمَوَاطِن فيذهب كثيرٌ من القرآن ، وإني أرى أن تأمُر بجمْع القرآن . قلتُ لعمر : كيف نفعلُ شيئًا لم يَفعلْه رسول الله ﷺ ؟ قال عمر : هذا والله خيرٌ . فلم يَزَل عمر يُراجعني ، حتى شرحَ الله صدري لذلك ، ورأيتُ في ذلك ، الذي رأى عمرُ . قال زيد : قال أبو بكر : إنَّك رجلٌ شابٌّ عاقلٌ لا نَتهِمُك، وقد كنتَ تكتُبُ الوحيَ لرسول الله ﷺ، فتَتَبَّعِ القرآنَ فاجْمَعْهُ. فوالله لو كلَّفوني نَقْلَ جبلٍ من الجبال ، ما كان أثْقَلَ عليَّ ممَّا أمَرَنِي به من جمع القرآن . قلتُ : كيف تفعلون شيئًا لم يَفعلْه رسولُ الله ﷺ ؟ قال : هُو والله خيرٌ . فلم يَزَل أبو بكر يُراجعني ، حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدرَ أبي بكرٍ وعمر رضي الله عنهما ، فتَتَبَّعْتُ القرآن أجْمَعُهُ من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال ، حتى وجدتُ آخر سورة التوبة مع أبي خُزيْمة الأنصاري ، لم أجِدْها مع أحدٍ غيره : ﴿ **لقد جاءكم رسولٌ من أنفُسِكُمْ عزيزٌ عليه ما عَنِتُّم** ﴾ حتى خاتمة براءة ، فكانت الصُّحُف عند أبي بكرٍ حتى توفَّاه الله ، ثم عند عمر حياتَهُ ، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه(١) .

ومثْل ما حَدَث مع أبي بكرٍ ، حدَثَ مع عثمان : عن ابن شهاب ، أن أنس بن مالك حدَّثه ، أن حذيفة بن اليمان قَدِم على عثمان وكان يُغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفْزَعَ حُذيفةَ اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفةُ لعثمان : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأُمَّة قبل أن يختلفوا

(١) رواه البخاري والترمذي وأحمد وأبو يعلى والطيالسي .

في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمانُ إلى حفصة ، أن أرْسِلي إلينا بالصُّحُف نَنْسَخُها في المصاحف ثم نردُّها إليك . فأرسلتْ بها حفصة إلى عثمان ، فأمَرَ زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبدَ الرحمن بن الحارث بن هشام ؛ فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرَّهْط القُرشِيِّين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيدُ بن ثابت في شيءٍ من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنَّما نزلَ بلسانهم . ففَعَلُوا ، حتى إذا نَسَخُوا الصُّحُف في المصاحف، ردَّ عثمانُ الصحفَ إلى حفصة، فأرسَلَ إلى كلِّ أُفُقٍ بمصْحَفٍ ممَّا نسخُوا ، وأمَرَ بما سواه من القرآن في كلّ صحيفةٍ أو مصحفٍ ؛ أن يُحْرَق[1] .

لله دَرُّك من إمامٍ .. قال ابن عباس : لقد عَلمَ المحفوظون من أصحاب محمدٍ ﷺ ، أن زيد بن ثابت من الراسخين في العِلْم .

وانظر إلى علوّ همَّته : عن زيد بن ثابت قال : أمرني رسولُ الله ﷺ أن أتعلَّم له كتاب يهود ، فقال : « إني والله ما آمَنُ يهودَ على كتاب » قال : فما مرَّ بي نصف شهر حتى تعلَّمْتُهُ له . قال : فلمَّا تعلَّمْتُهُ كان إذا كتبَ إلى يهود ؛ كتبتُ إليهم ، وإذا كتبوا إليه ، قرأتُ له كتابهم »[2] .

عن عمَّار بن أبي عمّار قال : لمَّا مات زيد بن ثابت ، قَعَدْنا إلى ابن عباس في ظلِّ القصر فقال : هكذا ذَهابُ العلم ، لقد دُفِن اليومَ عِلْمٌ كثيرٌ .

زُهْرَةُ بنُ الحَويَّة التميمي ، فاتِحُ ما بين القادسيَّة والمدائن رضي الله عنه :

الصحابي الجليل الذي تولَّى قيادة الجيوش في عهد عمر ، وبذلَ جهده

---

(١) رواه البخاري .

(٢) حسن لغيره : رواه الترمذي ، وأبو داود ، وابن سعد في الطبقات ، ورواه البخاري معلَّقًا ، وله شاهد عند ابن سعد والحاكم فيه : « هل تستطيع أن تَعَلَّم كتاب العبرانية أو السريانية فقلت : نعم . قال : فتعلَّمتُها في سبع عشرة ليلة » .

في مُحاربة المرتدِّين من أهل البحرين حتى عادوا إلى الإسلام .

ويذكُر التاريخ لزُهرةَ نجاحَهُ في حماية قوات المسلمين ، عند حركتها من منطقةِ حَشْدِها في « شراف » حتى وصولها للقادسية . وعسكرتْ قواتُه حتى وصلتْ قوات سعد رضي الله عنه ، فتقدَّم زهرةُ على رأس المقدِّمة حتى نزل القادسية .

وكان في «العُذَيْب» جنديٌّ فارسيٌّ يستطلع حركات أرْتَال المسلمين، فخرجَ راكِضًا نحو القادسية ليُخبر الفُرس عن قوة المسلمين ، فلمَّا عَلِمَ زُهرةُ بأمره ، اتَّبَعَهُ وقَتَلَه ، بعد أن عجزَ أصحابُ زهرة عن إلقاء القبض عليه[1] .

ووجدَ زهرةُ في « العُذَيْب » رماحًا ونُشَّابًا وأسْقاطًا من جلودٍ وغيرها ، فانتفَعَ بها المسلمون ، كما انتفعوا بالأموال الكثيرة التي حصلتْ عليها سريَّةٌ بعثها زُهرةُ للغارة على الحِيرة ، وبذلك انتعش المسلمون بهذه الغنائم .

زُهرةُ قائد الميسرة في القادسية :

لما نشبَ القتال بين الفرس والمسلمين ، اندمجت قوات المقدمة التي كان يقودها زُهرة بالقطاعات المقاتلة الأخرى، لذلك سلَّم سعد قيادة الميسرة لزُهرة، فكان زهرة قائدًا للميسرة في معركة القادسية الحاسمة[2] ، وكان لبلاء زهرة وثَبَاتِهِ أثر كبير في انتصار المسلمين على الفرس في تلك المعركة ، لذلك كان من بين خمسة وعشرين بطلًا فضَّلهم سعد في العطاء ؛ لبلائهم في القادسية بلاءً مشرِّفًا .

زهرة قاتِل الجالينوس أحد ملوك الفرس :

ولمَّا انكشف أهل فارس ، أمر سعدٌ زهرة بمطاردتهم ، فخرج على رأس المقدمة في آثارهم، فأدرك الجالينوس يحمي انسحاب قوات فارس عند«الخرَّارة»

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ١٢ .
(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٤٣ .

فدَهَمَه زهرةُ ومن معه ، فحملَ على جالينوس وهو لا يعرفه، فطَاعَنَهُ ، فاختلفا ضربتيْن ثم قَتَله زهرةُ ، وانهزم عن جالينوس أصحابُه ، وأخذ زهرةُ سَلَبَهُ ، وكان عليه يَارَاقانِ - أساوِر تُلبس في العَضُد - وقُلْبان قُرْطان ، وإن حصان زهرة يومئذٍ ما عِنانه إلَّا حبل مضفور ، وما حزامه إلَّا شعر منسوج . وقتل زهرة في هذه المطاردة مَنْ وَجَد من الفُلُول بين الخَّرارة إلى السيلحين ، ثم أمْعَنَ حتى بلغ « النجف » ، بينما كان الهرمزان يجدُّ في فراره . « وحين عاد زهرة من المطاردة التي خرج فيها ، كان قد تدرَّع بما كان على جالينوس ، فعرفه الأسرى الذين كانوا عند سعد وقالوا : هذا سَلَبُ جالينوس . فقال له سعد ، هل أعانك عليه أحد ؟ قال : نعم . قال : مَنْ ؟ قال : الله . وكان زهرة يومئذٍ شابًّا له ذُؤَابَةٌ ، وقد سُوِّد في الجاهلية وحَسُن بلاؤه في الإسلام ، وغضبَ سعدٌ أن تسرَّع زهرة فلبس ما كان على جالينوس ، واستكثره عليه ، فنَزَعَهُ عنه ، وقال : ألا انتظرت إذني ؟ »[1] . وكتب سعد إلى عمر بما كان من شأن زهرة ، وكتب زهرة في هذا الشأن إلى عمر ، فكتب عمر بن الخطاب إلى سعد في شأن زهرة : « أنا أعلمُ بزُهرةَ منك ، وإن زهرة لم يكن ليُغَيِّب من سَلَبِ سَلَبَهُ شيئًا ، فإن كان الذي سعى به إليك كاذبًا ، فلقاه الله مثل زهرة في عَضُدَيْهِ يَارَاقانِ ، تَعْمِدُ إلى مِثْل زهرة وقد صَلِي بمِثْل ما صليَ به ، وقد بقي عليك من حَرْبِك ما بقَي ، تكسرُ قرنَهُ وتُفسد قلبه ؟! أمْضِ له سَلَبَهُ وفَضِّله على أصحابه عند العطاء بخمسمائة، وإني قد نَفَلْتُ كلَّ مَنْ قَتَل رجلًا، سَلَبَهُ»[2] . وردَّ سعد إلى زهرة ما كان نَزَعَهُ منه ، فباعه بسبعين ألف درهم .

الفاتح :

ولمَّا فرغَ سعد من أمر القادسية ، أقام بها بعد الفتح شهرين ، وكاتب

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥٦٧ ، ٣ / ٥٦٨ .

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٥٨٤ .

عمر فيما يفعل ، فكتب إليه عمر يأمره بالمسير إلى المدائن ، فجعل سعد على المقدِّمة زُهرة ، وأمره بالتقدُّم ، فسار زهرةُ حتى نزل الكوفة ، وانتظر هناك حتى نزل عليه عبدُ الله بن المُعتَم وشُرحبيل بن السِّمْط ، فارتحل زهرةُ حين نزلا عليه نحو المدائن ، فلمَّا انتهى إلى « بُرْس » لَقِيَه جمع من الفرس ، فهزمهم وقتل هو قائدَهم « بصبهري » بطعنة من رمحه[1] .

ومكث زهرةُ ريثما عَقَدَ له « بسطام » - دِهْقَان « بُرْس » - الجُسُورَ ، وأتاه بأخبار الفرس الذين حشدوا قواتهم في «بابل» ، فكتب زهرة إلى سعد بالخبر ، فارتحَلَ سعد بالناس إلى « برس » ،ثم قدم زهرة إلى بابل، وتقدَّم جيش المسلمين من ورائه ، ولمَّا أنجزَ المسلمون حشْد قواتهم ببابل ، قاتلوا القوات الفارسيَّة هناك ، فلم يتمكَّن المدافعون عن بابل من حمايتها أمام العاصفة المُدمِّرة من زهرة وقواته ، ونزلوا على « الفيرزان » وقواته ببابل «فهزموهم في أسرع من لَفْت الرداء»[2]، وقدَّم سعد زُهرةَ إلى «بَهرْسير»، فتلقاه دهقان «ساباط»، وصالحَهُ على الجزية . وفي طريقه إلى المدائن ، قضى زهرةُ على كتيبةٍ للفرس ، ثم انتظر تجمُّع قوات المسلمين حول « بهرسير » ؛ الواقعة على ضفَّة دجلة اليمنى ، مقابل « المدائن » التي تقع على ضفَّة النهر اليسرى ، فحاصَرَها سعدٌ وضَرَبها بالمنجنيقات ، ودبَّ إليها جنوده بالدَّبَّابات ، وكان على زهرة دِرْعٌ مفصومة ، فقيل له : « لو أمرتَ بهذا الفصم فيُسْرد ؟ فقال : ولم ؟ فقالوا : نخاف عليك منه. فقال: إني لكريمٌ على الله إن تَرَك سهمُ فارس الجند كلَّه، ثم أتاني من هذا الفصم حتى يثبت فيَّ. فكان أوَّل رجل من المسلمين أُصيب يومئذٍ بنُشَّابَةٍ، فثبتتْ فيه من ذلك الفصم، فقال بعضهم: انزعوها عنه. فقال: دعوني، فإن نفسي معي ما دامت فيَّ، لعلِّي أن أُصيب منهم بطعنة أو ضربة. فمضى إلى العدو[3]».

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ١١٣ - ١١٤ ، والكامل لابن الأثير ٢ / ١٩٦ .
(٢) تاريخ الطبري ٢ / ١١٤ ، وابن الأثير ١٩٦/٢ .
(٣) تاريخ الطبري ١١٧/٣- ١١٨، وابن الأثير ٢ / ١٩٥ .

وخرج قائد الجيش الفارسي شهريار وفي يده رُمْحُه مُعتَقِلًا سيفه ، فقال وملؤه الكِبْر : « ألا فارس منكم شديد عظيم يخرج إليَّ حتى أُنكّل به ؟ » . فناداه زهرة:« لقد أردت أن أُبارزك ، فأمَّا إذ سمعتُ قولك ، فإني لا أُخرج إليك إلَّا عبدًا ، فإن أقمتَ له قَتَلَكَ إن شاء الله ببَغْيك ، وإن فررتَ منه فإنما فررت من عبد » . فخرج أبو نبتة بن جعشم الأعرجيُّ إليه فقتله .

لله درُّ زهرة من بطلٍ، مضى نحو المجوس في معركة بهرسير– المدينة الدنيا وأُولى المدائن السبع التي تتكون منها المدائن – والنُّشَّاب في جسمه ، فضرب بسيفه سيِّدًا من أكبر ساداتهم من أهل « إصطخر » فقتله وانكشف أصحابُه، وسقطت بهرسير بعد طول حصارٍ، ودخل المسلمون فاتحين وشهد زهرةُ فتح المدائن ، وكان على رأس قوةٍ لمُطاردة الفرس بعد فتح المدائن ، فأدرك جماعةً من الفرس على جسر « النهروان » ، فازدحموا عليه ، فوقع منهم بغلٌ في الماء ، فعجلوا وكبُّوا عليه ، فقال بعض المسلمين : « إن لهذا البغل لَشأنًا » . فجالَدهم المسلمون عليه حتى أخذوه ، وفيه حِلْية كسرى وثيابه وخرزاته ووشاحُه ودرْعه التي فيها الجوهر[1] .

رضي الله عن زهرة «فقد كان من ألمع قادة الفتح الإسلامي عندما يتولَّى قيادة المقدِّمات وقوات المطاردة ، فقد نجح في قيادته هذين الواجبيْن نجاحًا باهرًا يدعو إلى الإعجاب الشديد . إن هذين الواجبين يحتاجان إلى قائدٍ شجاع ، وكان زهرة يتحلَّى بشجاعة بطوليَّةٍ نادرةٍ ، تجعله في مَصَافِّ أبطال الحروب في التاريخ .

كان مندفعًا يتحمَّل المشاقَّ ولا يكلّ من التعب ، وأعانه على ذلك شبابُهُ وحيويَّته وصبرُهُ ، إن زهرة قائد عبقريٌّ بحقٍّ ، أثبت جدارةً فائقة في قيادة الرجال خلال فترةٍ قصيرة من أعماله العسكرية ، ولست أشكُّ في أن هذه الفترة

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢ / ١٩٩ ، وتاريخ الطبري ٣/١٢٦ .

لو طالتْ ، لَنَافسَ زهرةُ في شهرته المثنَّى بن حارثة الشيباني وخالد بن الوليد المخزوميَّ »(١) .

ولمَّا عاث شبيبٌ الخارجيُّ في الأرض فسادًا ، أشار زهرةُ على الحجَّاج فقال له : « إنك إنما تبعثُ إليهم الناس منقطعين ، فاسْتَنْفِرِ الناس إليهم كافَّة ، فَلْيَنْفِرِ إليهم الناسُ كافَّةً ، وابعثْ عليهم شجاعًا مُجرِّبًا للحرب ، ممَّن يرى الفرار هضمًا وعارًا ، والصبر مجدًا وكرمًا » . فقال الحجاج : « جزاك الله عن الإسلام وأهله في أوَّل الإسلام خيرًا ، وجزاك الله عن الإسلام في آخر الإسلام خيرًا » .

وقال زهرة لعتاب بن ورقاء قائد أهل الكوفة : « إني أرجو أن يكون الله قد أهدى إلينا الشهادة عند فناء أعمارنا » . وكان له ما أراد ، ووقف قائدُ الخوارج شبيبٌ على جثمانه وقال له : « لَرُبَّ يومٍ من أيامِ المسلمين ، قد حَسُن فيه بلاؤك وعظُم فيه غَناؤك ، ولَرُبَّ خيلٍ للمشركين قد هزمْتَها ، وسريَّةٍ لهم قد أغرتَها ، وقريةٍ من قُراهم قد افتتحْتَها »(٢) . والفضل ما شهدتْ به الأعداءُ .

محمد بن القاسم الثقفي : فاتح السِّنْد والهند وعمره سبعة عشر عامًا :

أهدى ملكُ جزيرة الياقوت - سيلان - إلى الحجاج نسوةً مسلمات وُلِدْنَ في بلاده ومات آباؤهن وكانوا تجارًا ، فعَرَض للسفينة التي كُنَّ فيها قومٌ من قراصنة « الديْبُل » ، وأخذوا السفينة بما فيها ، فنادت امرأةٌ منهنَّ - وكانت من بني يربوع -: « يا حجاج ».وبَلَغَ الحجاج ذلك ، فقال : « يا لبَّيْكِ » . فأرسل إلى « داهر » ملك السند يسأله تخلية النسوة ؛ فقال : « إنما أخَذَهُنَّ لصوصٌ لا أقدر عليهم » . فأغزى الحجاجُ محمدَ بن القاسم الثقفي ثغر السند ، فتجهز محمد بكلِّ ما احتاج إليه ، ثم سار من « مكران » ووِجْهَتُهم « الديبل »

(١) قادة فتح العراق والجزيرة صـ ٣١٦ - ٣١٨ للواء الركن محمود شيت خطَّاب .

(٢) تاريخ الطبري ٥/٨٤- ٩١، والكامل لابن الأثير ٤/١٦٢- ١٦٤، والإصابة ١/٥٣٤ .

في اثني عشر ألفًا من جند الشام والعراق وثلاثة آلاف بعيرٍ تحمل متاعهم. أتى محمد «فنزبور» ففتحها ، ثم أتى «أرمائيل» ففتحها ، وقدِم «الديبل» في يوم جمعةٍ، فوافتْه سفنُه هناك، فخَنْدَقَ حين نزل «الديبل» وأنْزَلَ الناس منازلهم ونَصَب منجنيقًا يقال له : العروس ، الذي كان يعمل لتشغيله خمسمائة من الرجال ذوي الكفاءة ، فدك بقذائفه معبد الهنادكة الأكبر «البد» ، وحاصر محمد «الديبل» وقاتل حُماتها بشدَّة ، فخرجوا إليه ، ولكنَّه هزمهم حتى ردَّهم إلى البلد ، ثم أمر بالسلالم فنُصبتْ وصَعِد عليها الرجال ، وكان أوَّلهم صعودًا رجل من بني مراد من الكوفة، وفُتحتِ المدينة عَنْوَةً، وهربَ ملكُها «داهر» وأنزل فيها محمدٌ أربعة آلاف من المسلمين وبنى عليها جامعها ، فكان أول جامع في هذه المنطقة ، وسار محمد إلى « النيرون » فصالحَهُ أهلُها وبعثوا إليه بالميرة ، وسار محمد وجَعَل لا يمرُّ بمدينةٍ إلَّا فَتَحَها ، وصالحه أهل « سربيدس » فَفَرضَ عليهم الخراج ، وسار عنهم إلى «سهبان» ففتحها ، وصالحه أهل «سدوستان» وفَرَض عليها الخراج . وعَبَر محمدٌ نهر «مهران» ممَّا يلي بلاد المَلِك «راسل» - ملك «قصة» من الهند - على جسْر عَقَدَهُ ، و «داهر» مُستخِفٌ به لاهٍ عنه ، ولقِيَهُ محمد والمسلمون وهو على فيل وحوله الفِيَلَة ، فاشتدَّ القتَال بشكلٍ لم يُسمع بمثْله ، وترجَّل داهر وقاتَل حتى قُتل عند المساء ، فانهزم أصحابُهُ ، وقتلهم المسلمون كيف شاءوا ، وكان قاتل داهر - هو القاسم بن ثعلبة بن عبد الله الطائي - يترنَّم ويقول :

الخيْلُ تشهدُ يومَ داهر والقنا ... ومحمد بن القاسم بن محمدِ
أنِّي فرجتُ الجَمْعَ غَيْر مُعَرِّدٍ[1] ... حتى علوتُ عظيمَهم بِمُهَنَّدِ
فتركتُهُ تحت العجَاجِ مُجنْدَلًا ... مُتعفِّرَ الخدَّيْنِ غَيْرَ مُوَسَّدِ

فلما قُتل داهر ، غلب محمدٌ على بلاد السند ، ففتح «رأور» عَنْوةً ، وكان

---

(١) معرد : عرَّد الرجلُ عن الطريق ، إذا انحرفَ عنه .

بها امرأة داهر «راني باي» فحرقتْ نفسها وجواريها وجميع ما لها ، وتقدَّم المسلمون بعد ذلك صوب الشمال مشرقين حتى بلغوا «برهمنآباد» وكان بها المنهزمون من أصحاب داهر ، ففتَحَها محمد وقتل بها بشرًا كثيرًا وخرَّبها .

وسار محمد إلى « ساوندري » فصالَحَهُ أهلُها وأسلموا بعد ذلك ، ثم صالَحَ أهل « بسمد » ، وسار عنها إلى « الرور » - وهي من مدائن السند تقع على جبل - فحاصرها شهورًا ، ثم فتحها صُلحًا ووضع عليهم الخراج وبنى بها مسجدًا ، ثم سار إلى «السّكّة» ففتحها ، ثم عبر نهر «بياس» - رافد نهر السند - إلى مدينة «المُلتان» أعظم مدن السند الأعلى وأقوى حصونه ، بها صنم يُعظِّمه الهنود ، وتحجُّ إليه من أقصى بُلْدانها ، ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده فامتنعت عليه شهورًا ، وقاتله أهلُها فانهزموا ، فحَصَرهم ، فأتاه رجل مستأمنٌ دلَّه على مدخل الماء الذي يشرب منه السكان ، فقَطَعَه عليهم ، فنزلوا على حُكمه ، فقتل محمد المقاتلة وسبى الذُّرِّيَّة ، وسبى سَدَنَة «البد» وهم ستة آلاف ، وأصاب مالًا كثيرًا جمعه في بيت طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية أذرع ، فسُمِّيتِ الملتان «فرْج[1] بيت الذهب» وعظُمتْ فتوح محمد، وكثرتْ غنائمُهُ من الأموال ، حتى قال الحجاج : « شفيْنا غيظنا ، وأدركْنا ثأرَنا ، وازددْنا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر »[2] .

لقد أنْجَزَ محمدٌ هذا الفتح كلَّه في الفترة ما بين تسع وثمانين الهجرية ، وأربع وتسعين الهجرية .

وفتح محمدٌ «الرور» و «النعرور» ووجَّه جيشًا إلى «البيلمان» ففتحوها صُلحًا ، وصالحه أهل «سرشت» ، ثم أتى محمد «الكيرج» ، فخرج إليه «دوهر»

---

(١) الفرج : الثغر .

(٢) فتوح البلدان للبلاذري صـ ٤٢٧ ، والكامل لابن الأثير ٤/٢٠٦ ، ومقدمة ابن خلدون ٣/٦٠-٦١ .

مَلِكُ تلك المنطقة ، فقاتله محمدٌ ، وانهزم دوهر وهرب . وقيل : بل قُتل فنزل أهل المدينة على حُكم محمد ، فقتَل وسَبَى .

وبينما كان محمد ينتقل من نصر إلى نصر ، ويستَعدُّ لفتح مملكة «قنوح» أعظم إمارات الهند ، وكانت تمتدُّ من السند إلى البنغال ، وجهَّز جيشًا عدَّتُه عشـرة آلاف فارس ؛ لضمِّ مملكة الهند الشمالية وعاصمتها «قنوح» ، عُزل محمد بن القاسم وحُمِل مقيَّدًا إلى العراق ، فقال محمد متمثِّلًا :

أضاعوني وأيّ فتىً أضاعوا ليوم كَرِيهةٍ وسَدادِ ثَغْرِ

فبكى أهـل السند والهند – الذين دخلوا في الإسلام – محمدًا ، فلمَّـا وَصَل إلى العراق حَبَسَه صالحُ بن عبد الرحمن ، بواسط ، فقال محمد :

فلَئِنْ ثَوَيْتُ بِوَاسِطٍ وبأرضِها رَهْن الحديدِ مُكَبَّلًا مَغْلُولَا
فَلَرُبَّ فِتْيَة فارس قد رُعْتُها ولَرُبَّ قرنٍ قد تركتُ قَتِيلَا

وكان محمد يهتف في أعماق سجنه :

أَتَنْسى بنو مروان سمْعي وطاعتي وإنِّي على ما فاتني لَصَبُورُ
فتحتُ لهم ما بين «سابور» بالقَنا إلى الهند منهم زاحِفٌ ومُغِيرُ
فتحتُ لهم ما بين «جُرجان» بالقنا إلى الصين ألقى مرَّةً وأُغِيرُ

وعُذِّب محمد ومات من العذاب في سجنه .

رَحَل الضخم الفَذُّ ، القائد الذي سارت بذكْره الرُّكبان ولم يكن له نظير في عصره .. الشاب الذي فتح السند والهند وعمره سبع عشرة سنة .

قال يزيد بن الأعجم :

ساسَ الجيوشَ لسبع عشرة حِجَّةً ولِدَاتُهُ عن ذاك في أشْغالِ
فغدتْ بِهِمْ أهواؤهم وسَمَتْ به هِمَمُ الملوك وسَوْرَةُ الأبطالِ[1]

---

(١) انظر محمد بن القاسم الثقفي فاتح السند ، للواء الركن محمود شيت خطاب – دار قتيبة .

وقال حمزة الحنفي :

إن المروءة والسَّماحةَ والنَّدَى   لمحمدِ بن القاسم بنِ محمدِ
ساسَ الجيوشَ لسبع عشْرةَ حِجَّةً   يا قُربَ ذلك سُؤْدُدًا من مولدِ

رحم الله محمدًا على بلائه الرائع في فتح السند والهند ، فآثاره لن تموت أبدًا ، وأعماله المجيدة باقية أبد الدهر ، وسيبقى اسمه رمزًا للجهاد الصادق والتضحية الفذة والصبر الجميل وعلو همة الشباب .

عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ، ذو التسعة عشر عامًا ، العابد الربَّاني :

ولد سنة ٨٢ هـ ، ومات سنة ١٠١ هـ ، وهو في التاسعة عشرة من عمره ؛ مات شابًّا في زهرة شبابه ، زهرة نَضرة لم تعرف آثام الحياة ، ماءً صافيًا يتدفَّق حكمةً وزُهْدًا .

وينشأُ ناشيء الفتيانِ منَّا   على ما كان عوَّده أبوه

نِعْمَ الفتى المكتهل، الذي كان قائدًا مع أبيه لأُمَّةٍ انحرفت عن السبيل ، كان عونًا لأبيه ولما يتجاوز السادسة عشرة . كان رحمه الله ابن أُمِّ ولد ، وقد أُعْجب به والده أيَّما إعجاب .

قال ابن رجب الحنبلي : « لقد كان رحمه الله مع حَدَاثةِ سِنِّه ؛ مجتهدًا في العبادة ، ومع قُدْرته على الدنيا وتمكُّنه منها ؛ راغبًا مُؤْثرًا للزهادة . فعسى الله أن يجعل في سماع أخباره لأحد من أبناء جنْسِهِ أُسْوة ؛ لعلّ أحدًا كريمًا من أبناء الدنيا تأخذه بذلك حميَّة على نفسه ونخوة . وأيضًا ففي ذكْر مثل أخبار هذا السيد الجليل مع سِنِّه ؛ توبيخ لمن جاوز سنّه وهو بطال ، ولمن كان بعيدًا عن أسباب الدنيا وهو إليها ميَّال »[1] .

روى الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء عن بعض مشيخة أهل الشام قال :

(١) سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لابن رجب الحنبلي صـ ٢٨ ، ٢٩ - دار ابن حزم .

كنا نرى أن عمر بن عبد العزيز إنما أدخله في العبادة ما رأى من ابنه عبد الملك .

وروى الإمام أبو عُبيد القاسم بن سلام بسنده في كتاب «فضائل القرآن»، عن عاصم بن أبي بكر بن عبد العزيز بن مروان - وهو ابن أخي عمر بن عبد العزيز - قال : وفَدْت إلى سليمان بن عبد الملك ، ومعنا عمر بن عبد العزيز ، فنزلتُ على ابنه عبد الملك ، وهو عَزَبٌ ، فكنتُ معه في بيت ، فصلَّينا العشاء ، وأوىٰ كلُّ رجل منا إلى فراشه ، ثم قام عبد الملك إلى المصباح فأطفأه ، ثم قام يصلِّي ، حتى ذهب بي النوم ، فاستيقظت فإذا هو في هذه الآية : ﴿ **أفرأيت إنْ متَّعْناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يُوعَدون ما أغنى عنهم ما كانوا يُمتَّعُون** ﴾[الشعراء : ٢٠٥ - ٢٠٦]. فيبكي ، ثم يرجع إليها ، فإذا فرغ منها فعل مثل ذلك ، حتى قلتُ : سيقتله البكاء. فلما رأيتُ ذلك قلت: لا إله إلا الله والحمد لله، كالمستيقظ من النوم، لأقطع ذلك عليه، فلمّا سمعني سكت فلم أسمع له حسًّا ، رحمه الله .

وفي كتاب الدورقي « مناقب عمر بن عبد العزيز » : أن عمر بن عبد العزيز جمع الناس واستشارهم في ردِّ مظالم الحجاج ، فكان كلَّما استشار رجلًا قال له : يا أمير المؤمنين ، ذاك أمر كان في غير سلطانك ولا ولايتك . فكان كلَّما قال له رجل ذلك أقامه ، حتى خلص بابنه عبد الملك ، فقال له ابنه عبد الملك : يا أبهْ ما من رجل استطاع أن يردَّ مظالم الحجاج إن لم يردّها أن يُشركه فيها . فقال عمر : لولا أنك ابني لقلْتُ : إنك أُفْقَهُ الناس .

وفي رواية : قال عبد الملك : أرى أن تردَّها ، فإن لم تفعل كنتَ شريكًا لمن أخذها .

وعن ميمون بن مهران قال : دخلتُ على عبد الملك ، فحضر طعامه فأُتي بقَلْيَة مدنية وهي عظام اللحم ، ثم أُتي بثريدةٍ قد مُلئت خبزًا وشحمًا ، ثم أُتي بزبدٍ وتمرٍ . فقلتُ : لو كلَّمت أمير المؤمنين يخصُّك منه بخاصَّةٍ.فقال :

إني لأرجو أن يكون أوفى حظًّا عند الله من ذلك . فقلت في نفسي : أنت لأبيك .

ودخل عليه مرة أخرى ، فإذا بين يديه مائدة عليها ثلاثة أرغفة وقصعة فيها خل وزيت .

حِلْمُه وكَظْمه للغيظ :

عن إسماعيل بن أبي الحكم قال : غضب عمر بن عبد العزيز يومًا فاشتدَّ غضبُه - وكان فيه حِدَّة - وعبد الملك بن عمر بن عبد العزيز حاضر ، فلمَّا سكن غضبه ، قال : يا أمير المؤمنين ، أنت في قدر نعمة الله عليك فهو موضعك الذي وضعك الله به ، وما ولَّاك من أمر عباده ، يبلغُ بك الغضب ما أرى ؟! قال : كيف قلت : فأعاد عليه كلامه ؛ فقال له عمر : أما تغضب يا عبد الملك ؟ قال : ما تُغني سِعَة جوفي إن لم أردَّ فيه الغضب ، حتى لا يظهر منه شيءٌ أكرهه . قال : وكان له بُطين[1] رحمه الله تعالى .

وعند الدورقي أنه قال لأبيه : لا والذي أكرمك بما أكرمك به ، إن مَلأني غضبٌ قط . والمعنى : ما ملأني الغضب قطّ .

وعند ابن أبي الدنيا : أن عمر بن عبد العزيز أمر غلامه بأمرٍ ، فغضب عمر، فقال له عبد الملك: يا أبتاه، وما هذا الغضب والاختلاط ؟! فقال عمر: إنك لتتحلَّم يا عبد الملك ؟ فقال له عبد الملك : لا والله ما هو التحلُّم ولكنه الحلم .

قال ابن رجب : ومراد عبد الملك رحمه الله : أنَّ الحِلْم عنده صفة لازمة له ، وهو مجبول عليها ، ولا يحتاج أن يتعاطاه ويتكلَّفه تكلُّفًا من غير أن يكون عنده حقيقةً .

قال عمر بن عبد العزيز : لولا أن أكون زُين لي من أمر عبد الملك ما

---

(١) بطن صغير .

يُزَيَّن في عين الوالد من ولده ؛ لرأيتُ أنه أهلٌ للخلافة .

وعن إبراهيم بن أبي عبلة قال : جلس عمر بن عبد العزيز يومًا للناس ، فلمَّا انتصف النهار ضَجِرَ وعلَّ ومَلَّ فقال للناس: شأنكم، حتى أنصرف إليكم. فدخل يستريح ساعةً، فجاء ابنه عبد الملك فسأل عنه، قالوا: دخل. فاستأذن عليه ، فأذِن له ، فلمَّا دخل ، قال : يا أمير المؤمنين ، ما أدخلك ؟ قال : أردتُ أن أستريحَ ساعة. قال: أوَ أَمِنْتَ الموت أن يأتيَك، ورعيتك ينتظرونك وأنت محْتجِبٌ عنهم ؟ فقام عمر من ساعته وخرج إلى الناس .

وروى أبو بكر الآجري : أنه لما دُفن سليمان بن عبد الملك ، خطب الناس ونزل ، ثم ذهب يتبوأُ مقيلًا ، فأتاه ابنه عبد الملك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، مَنْ لك أن تعيش إلى الظهر ؟! قال : اُدْن مني أي بني . فدنا منه والتزمه وقبَّل بين عينيه ، وقال : الحمد لله الذي أخرج من صُلْبي مَنْ يُعينُني على ديني . فخرج فلم يَقِلْ ، وأمر مناديه أن ينادي : ألَا مَن كان له مظلمة فليرفعْها .

وعن يحيى بن إسماعيل قال : مات ابن لعمر بن عبد العزيز ، فجاء عمر فقعد عند رأسه ، وكشف الثوب عن وجهه ، فجعل ينظر إليه ويستدمع ، فجاء عبد الملك ابنه فقال : أشَغَلَكَ يا أمير المؤمنين ، ما أقبل من الموت إليك ؟! بل هو في شغل عما حلَّ لديك ، فكان قد لحقت به وساويتَهُ تحت التراب بوجهك . فبكى عمر ثم قال : رحمك الله يا بني ، فوالله إنك لعظيم البركة - ما علمتُك - على أبيك ، نافع الموعظةِ لمن وعظت . وأيم الله ، إن كان الذي رأيتَ من جزعي على أخيك ، ولكن لما علمت أن ملك الموت دخل داري فراعني دخوله ، فكان الذي رأيت . ثم أمر بجهازه .

وجمع عمر بن عبد العزيز قرَّاء الشام وفيهم ابن أبي زكريا الخزاعي ، فقال : إني قد جمعتُكم لأمرٍ : قد أهمتني هذه المظالم التي في أيدي أهل بيتي ، ما ترون فيها ؟ قالوا : ما نرى وزْرها إلا على من غصبها . قال : فقال

عبد الملك : ما أرى مَن قَدِر على أن يردَّها فلم يردَّها والذي اغتصبها ؛ إلّا سواء . فقال : صدقت يا بُني . ثم قال : الحمد لله الذي جعل لي وزيرًا من أهلي عبد الملك ابني .

وقال عمر بن عبد العزيز يومًا لمولاه مزاحم : إن هؤلاء القوم - يعني بني عمه من الخلفاء الذين كانوا قبله - قد أعطونا عطايا وما كان لنا أن نقبلها ، وإن ذلك قد صار إليَّ وليس عليَّ فيما دون الله محاسب . فقال له مزاحم : يا أمير المؤمنين ، هل تدري كم عيالك ؛ هم كذا وكذا ؟! فذرفت عيناه ، فجعل يستدمع ويقول : أَكِلُهُم إلى الله عز وجل . ثم انطلق مزاحم من ساعته ، في وجهه ذلك ، حتى استأذن على عبد الملك بن عمر ، فأذن له ، وقد اضطجع للقايلة ، فقال له عبد الملك : ما جاء بك يا مزاحم هذه الساعة ؟ هل حَدَثَ مِنْ حَدَثٍ ؟ قال : أشد الحدث عليك وعلى بني أبيك . قال : وما ذاك ؟ قال : دعاني أمير المؤمنين ؛ فذكر له ما قال عمر ، فقال عبد الملك: فما قُلتَ له؟ فقال: قلتُ: يا أمير المؤمنين، هل تدري كم عيالك، هم كذا وكذا ؟! قال : فما قال لك ؟ قال : جعل يستدمع ويقول : أَكِلُهُم لله عز وجل . فقال عبد الملك : بئس وزير الدين أنت يا مزاحم . ثم وثب وانطلق عبد الملك إلى باب عمر ، فاستأذن عليه ، فقال الآذن : إن أمير المؤمنين قد وضع رأسه للقايلة . فقال : استأذن لي لا أُمَّ لك . قال : فسمع عمر الكلام ، فقال : مَنْ هذا ؟ قال : عبد الملك . قال : ائذن له . فدخل عليه وقد اضطجع للقايلة ، فقال : ما حاجتك يا بني هذه الساعة ؟ قال : حديث حدّثنيه مزاحم . قال : فأين وقع رأيك من ذلك ؟ قال : وقع رأيي على إنفاذه . قال : فرفع عمر يديه وقال : الحمد لله الذي جعل من ذريتي من يعينني على ديني . نعم يا بني أُصلِّي الظهر ، ثم أصعد المنبر فأردها علانيةً على رؤوس الناس . فقال عبد الملك : ومن لك بالظهر يا أمير المؤمنين ، ومن لك إنْ بقيتَ إلى الظهر أن تسلم لك نيَّتُك إلى الظهر ؟ فقال عمر : قد

تفرَّق الناس ورجعوا للقائلة . فقال عبد الملك : تأمر مناديك ينادي : الصلاة جامعة ، فيجتمع الناس . قال : فنادى المنادي : الصلاة جامعة ، فخرجتُ فأتيتُ للمسجد وجاء عمر وصعِد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإن هؤلاء القوم قد أعطونا عطايا ، والله ما كان لهم أن يُعطوناها ، وما كان لنا أن نقبلها منهم ، وإن ذلك قد صار إليَّ ، ليس عليَّ فيه دون الله تعالى محاسب، ألا وإنِّي قد رددْتُها، وبدأتُ بنفسي وأهل بيتي، اقرأ يا مزاحم.

قال : وجيء بسَفَط . أو قال : جيء بكتب الإقطاعات ، فقرأ مزاحم كتابًا منها ، فلمَّا فرغ من قراءتها ، ناوله عمر وهو قاعد على المنبر ، فقصَّه بالجلم[1] . فاستأنف مزاحم كتابًا آخر فجعل يقرأ، فلمّا فرغ منه رفعه إلى عمر فقصَّه، ثم استأنف كتابًا آخر، فما زال كذلك حتى نودي لصلاة الظهر.

والمراد من هذه الحكاية : أنَّ عبد الملك حثَّه على فِعْل ذلك وعلى المبادرة إليه ، حين عزم عليه؛خشية أن تنفسخَ عزيمته عن ذلك إن أخَّره إلى صلاة الظهر أو يموت قبل فِعْله .

وروى أبو نعيم بإسناده أن عبد الملك دخل على أبيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ماذا تقول لربك إذا أتيتَه وقد تركتَ حقًّا لم تُحْيِهِ وباطلًا لم تُمِتْه ؟!

وفي رواية : ماذا أنت قائل لربك غدًا إذا سألك فقال : رأيت بدعةً فلم تُمتها وسنَّة فلم تُحْيِها ؟

وروى عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب «الزهد» عن أبي شوذب قال : جاءت امرأة عبد الملك بن عمر إليه وقد ترجَّلت[2] ، ولبست إزارًا ورداءً ونعليْن ، فلما رآها قال : اعتدِّي ، اعتدِّي .

قال ابن رجب : وقوله : اعتدِّي . كناية عن الطلاق ؛ وإنما طلقها لما رآها قد تشبَّهت بالرجال في اللباس .

(١) الجلم : المقراض ، الذي يُجزُّ به الشعر والصوف .
(٢) أي لبست لبس الرجال .

أما هوان نفسه عليه في ذات الله ورضاه بما يناله من الأذى في الله عز وجل :

فقد قال ميمون بن مهران : قال عبد الملك بن عمر لأبيه يومًا : يا أَبَهْ ، ما منعك أن تمضي لما تريد من العدل ؟ فوالله ما كنتُ أُبالي لو غَلَتْ بي وبك القدور في ذلك .

وقال الربيع بن سبرة : قال عمر بن عبد العزيز يومًا : والله لَوَدِدْتُ لو عدلت يومًا واحدًا ، وأنَّ الله توفَّى نفسي . فقال ابنه عبد الملك : وأنا والله لَوَدِدْتُ لو عدلتُ فُواقَ ناقةٍ ، وأن الله توفَّى نفسي . فقال عمر : الله الذي لا إله إلا هو ؟ فقال عبد الملك : الله الذي لا إله إلا هو ، ولو جاشت بي وبك القدور. فقال عمر : جزاك الله خيرًا .

وقال سليمان بن حبيب المحاربي – قاضي الخلفاء –: قال عبد الملك بن عمر : والله ما من أحدٍ أعزُّ عليَّ من عمر ، ولئن سمعتُ بموته ، أَحَبُّ إليَّ من أن أكون كما رأيته .

قال ابن رجب: «العارفون بالله المحبُّون لله، يرضون بما تقتضيه مقاديره، وإن كانت شاقَّة على النفوس مؤلمة لها ، ويتلذَّذون بذلك ، ولا سيما إن كان أذاهم في تنفيذ أوامر الله والدعاء إلى طاعة الله ؛ وكان هذا مقام عمر بن عبد العزيز وابنه عبد الملك رضي الله عنه »(١) .

وقال عمر بن عبد العزيز لعبد الملك : ما كنتُ أحبّ أن أراه فيك إلا قد رأيته ، إلا شيئًا واحدًا . قال : ما هو ؟ قال : موتك . قال : أراكه الله . فأصابه الطاعون في خلافة أبيه ، فمات قبل أبيه ، ووقف عمر على قبره وقال : رحمك الله يا بني، فلقد كنتَ برًّا بأبيك، وما زلت منذ وهبك الله لي مسرورًا، ولا والله ما كنت أشد سرورًا ولا أرجى لحظِّي من الله فيك ، منذ وضعتُك في الموضع الذي صيَّرك الله إليه ، فرحمك الله وغفر ذنبك ، وجزاك بأحسن

---

(١) سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز صـ ٦٤ .

عملك وتجاوز عن سيئه ، ورحم كلَّ شافعٍ يشفع لك من شاهد وغائب .
رضينا بقضاء الله، وسلَّمنا لأَمْره، والحمد لله رب العالمين. رحمك الله يا عمر.

روى الإمام أحمد بإسنادٍ له : أن عمر بن عبد العزيز تتابعت عليه مصائب ؛ مات أخ له[1] ، ثم مات مزاحم مولاه ، ثم مات عبد الملك ابنه ، فلمَّا مات عبد الملك - رحمه الله - حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : لقد دفعتْه النساء في الخِرَق ، فما زلتُ أرى فيه السرور وقرَّة العين إلى يومي هذا ، فما رأيتُ فيه أمرًا قط أقرَّ لعيني من أمر رأيته فيه اليوم .

قال الربيع بن سبرة لعمر : أعظم الله جزاءك يا أمير المؤمنين ، فما رأيتُ أحدًا أُصيب بأعظم من مصيبتك في أيام متتابعة ؛ والله ما رأيتُ مثل ابنك ابنًا ، ولا مثل أخيك أخًا ، ولا مثل مولاك مولًى قط .

وقال سيار بن الحكم خادم عمر: قال ابن لعمر بن عبد العزيز يُقال له : عبد الملك - وكان يفضل على ابيه عمر -: يا أَبَهْ ، أقم الحقَّ ولو ساعة من نهار .

« وروى الدورقي بإسناد له : أن عمر قال لابنه عبد الملك يومًا : يا عبد الملك ، إني أخبرك خبرًا : لا والله إن رأيت فتًى ماشيًا قط أَنْسَكَ منك نسكًا ولا أفقه فقهًا ولا أقرأ منك ، ولا أبعد من صبوةٍ في صغير ولا كبير »[2] .

السيد الربَّاني : علي بن الفضيل بن عياض :

« قال الخطيب : كان من الورع بمحل عظيم ، ومات قبل أبيه بمدة .

قال فضيل: قال لي عبد الله بن المبارك: يا أبا علي، ما أحسن حال من انقطع إلى ربِّه. قال: فسمع ذلك ابنه عليّ؛ فسقط مغشيًّا عليه. وقال ابن المبارك: خير الناس- يعني في ذلك الوقت- فضيل بن عياض، وابنه عليّ خيرٌ منه.

---

(١) هو سهل بن عبد العزيز بن مروان .

(٢) سيرة عبد الملك بن عمر صـ ٧٦ . والصبوة : جهلة الفتوة واللهو من الغزل ومنه التصابي .

وقال ابن عيينة : ما رأيتُ أخوف من الفضيل وابنه »[(١)] .

لله درُّ عليٍّ من خائفٍ وَجِلٍ ، وشاب ذائبٍ نَحِلٍ .

قال شهاب بن عباد : كانوا يعودون عليّ بن الفضيل وهو بمنى فقال : لو ظننتُ أن أبقى إلى الظهر لشقَّ عليَّ .

وعن محمد بن الحسين قال : كان عليٌّ بن الفضيل يصلِّي حتى يزحف إلى فراشه ، ثم يلتفت إلى أبيه فيقول : يا أبتِ سبقني المتعبدون .

وقال أبو سليمان : كان عليّ بن فضيل لا يستطيع أن يقرأ القارعة ولا تقرأ عليه .

وكان رحمه الله يقول : ويحي من يوم أشد الأيام ، ولكَمْ من قبيحةٍ تكشفها القيامة غدًا !!

وعن فضيل : أنهم اشتروا شعيرًا بدينار - وكان ذلك في غلاء من الشعير - فقالت أم علي للفضيل: قوِّرتُه لكل إنسان قرصين . فكان عليّ يأخذ واحدًا ويتصدَّق بالآخر حتى كاد أن يُصيبَه الخواء ، أو أصابه بعض ذلك .

ومات رحمه الله من جرَّاء آيةٍ ظل يردِّدُها وهو يصلِّي ، وهي قوله تعالى : **﴿ ولو ترى إذ وُقِفُوا على النار فقالوا يا ليتنا نُرد ولا نكذِّب بآيات ربِّنا ونكونَ مِنَ المؤمنين ﴾** [الأنعام : ٢٧] .

وكان الفضيل يبكيه ويقول: واقتيلَ جهنماه، واقتيلَ القرآن، حبيبي من كان يساعدني على الحزن والبكاء. يا ثمرة قلبي، شكرَ الله لك ما قد علمه فيك.

فتى الفتيان ، سيِّد العُبَّاد والرهْبَان ، السختياني أيوب بن كيسان :

قال عنه الحسن : أيوب سيد شباب أهل البصرة .

وقال عنه الحسن أيضًا : سيد الفتيان .

وهذا سفيان بن عيينة ؛ لقي ستة وثمانين من التابعين ، وكان يقول :

---

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر ٧ / ٣٧٣ - دار صادر .

ما رأيتُ مثل أيوب ..

وكان آية في شبابه ، وامتدَّ به العمر حتى حجَّ أربعين حجَّة ، وكُلُّ أفعاله عجب .

الشافعي ناصر السنة وهو شاب :

قال الشيخ أحمد شاكر في مقدمته لكتاب « الرسالة » للشافعي : « نبغ الشافعي في الحجاز ، وكان إلى علمائه مرجع الرواية والسنة ، وكانوا أساطين العلم في فقه القرآن، و لم يكن الكثير منهم أهل لسن وجَدَل ، وكادوا يعجزون عن مناظرة أهل الرأي ؛ فجاء هذا الشاب يناظر وينافح ، ويعرف كيف يقوم بحُجَّته ، وكيف يُلزم أهل الرأي وجوب اتباع السنة ، وكيف يفصِّل للناس طرق فهْم الكتاب ، وكيف يدلّهم على الناسخ والمنسوخ من الكتاب والسنة ، وعلى الجمع بين ما ظاهره التعارض .. حتى سماه أهل مكة : « ناصر الحديث » وتواترت أخباره إلى علمـاء الإسلام في عصره ، فكانوا يفدون إلى مكة للحج يناظرونه ، ويأخذون عنه في حياة شيوخه ، حتى إن أحمد بن حنبل جلس معه مرة ، فجاء أحد إخوانه يعتب عليه أن ترك مجلس ابن عيينة - شيخ الشافعي - ويجلس إلى هذا الفتى !! فقال له أحمد : اسكت ، إنك إن فاتك حديث بعُلُوّ وجدتَه بنزول ، وإن فاتك عقل هذا أخاف أن لا تجده ؛ ما رأيتُ أحدًا أفْقَه في كتاب الله من هذا الفتى » .

ولقد جلس للإفتاء وهو لا يتجاوز العشرين من عمره ، وملأ طباق الأرض علْمًا .. لله درُّه .

البخاري يكتب « التاريخ الكبير » وهو ابن ثماني عشرة سنة : المثال العالي الغالي لعلُوِّ هِمَّةِ الشباب :

الكبش النطَّاح كما سمَّاه يحيى بن محمد ، أو البازل أي الكامل كما سمَّاه أبو بكر بن أبي شيبة؛ كان وهو شاب فضْلُه على العلماء كفضل الرجال على النساء.

قال حاشد : كنا يومًا عند إسحاق بن راهويه وعمرو بن زرارة وهو يستملي على أبي عبد الله البخاري ، وأصحاب الحديث يكتبون عنه وإسحاق يقول : هو أبصر مني . وكان أبو عبد الله إذ ذاك شابًّا .

قال البخاري رحمه الله : « لما طعنتُ في ست عشرة سنة حفظتُ كتب ابن المبارك ووكيع ، وعرفت كلام هؤلاء يعني : أصحاب الرأي .. فلما طعنتُ في ثماني عشرة صنَّفت كتاب «قضايا الصحابة والتابعين»، ثم صنَّفت « التاريخ » في المدينة عند قبر النبي ﷺ ، وكنتُ أكتبه في الليالي المقمرة ، وقلَّ اسم في «التاريخ» إلا وله عندي قصة، إلَّا أني كرهت أن يطول الكتاب».
هذا الكتاب الذي دخل به إسحاق بن راهويه على عبد الله بن طاهر وقال : أيها الأمير، ألا أُريك سحرًا ؟! سبحان الله !! والكتاب يقع في ثلاثة عشر مجلدًا .

قال الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد بن عقدة : لو أن رجلًا كتب ثلاثين ألف حديث ؛ لما استغنى عن تاريخ محمد بن إسماعيل .

قال البخاري : « دخلتُ على الحميدي وأنا ابن ثمان عشرة سنة ، فإذا بينه وبين آخر اختلاف في حديث ، فلمَّا بصُر بي قال : جاء من يفصل بيننا . فعرضا عليَّ الخصومة ، فقضيتُ للحميدي وكان الحق معه » . لله درُّه من فتىً يُناطح الكباش .

ولمَّا قدم البصرة وهو شابٌ في جامع البصرة؛ نودي يا أهل العلم، لقد قدم محمد بن إسماعيل البخاري. فاجتمع إليه من الغد المحدِّثون والحفَّاظ والفقهاء والنظَّارة ، حتى اجتمع قريب من كذا كذا ألف نفس ، فجلس أبو عبد الله للإملاء فقال قبل أن يأخذ في الإملاء : يا أهل البصرة ، أنا شاب وقد سألتموني أن أُحدِّثكم ، وسأحدِّثكم بأحاديث عن أهل بلدكم تستفيدونها . يعني : ليست عندكم .. يقول في كل حديث : هذا الحديث عندكم كذا فأما مِن رواية فلان - يعني التي يسوقها - فليست عندكم . فتعجَّب الناس . لله درُّه

من خَبْرٍ عجيبٍ يأتي بالأعاجيب .

ابن تيمية يُسْلم على يديه يهودي وهو صبي ، فكيف كان في شبابه ؟! :

قال الشيخ الحافظ عمر البزار : « كان الشيخ رضي الله عنه في حال صغره إذا أراد المضي إلى المكتب ، يعترضه يهودي – كان منزله بطريقه – بمسائل يسأله عنها .. وكان يجيبُه عنها سريعًا حتى تَعجَّب منه ، ثم إنه صار كلَّما اجتاز به يُخبره بأشياء مما يدلّ على بطلان ما هو عليه ؛ فلم يلبث أن أسلم وحَسُن إسلامه ، وكان ذلك ببركة الشيخ على صغر سنه »[1] .

فكيف كان شبابه إنْ كان هذا صغره ؟!!

والتاريخ مليءٌ بمَن أفنوا شبابهم في طاعة الله :

وعلى رأسهم إمام أهل السنة أحمد بن حنبل وهو شاب ، والدارقطني ، والإمام النووي . ولك أن تراجع عُلُوَّ همَّة الصبيان ، ثم تتبع هؤلاء في شبابهم .

محمد الفاتح يفتح القسطنطينية وهو في سنِّ الثالثة والعشرين :

وهذا السلطان محمد الفاتح يفتح القسطنطينية و لم يكمل الثالثة والعشرين من عمره كما مرّ بنا .

مصطفى كامل الزعيم المصري ، يتحدَّى الاحتلال الإنجليزي :

هذا الجبل المصري الذي ولد وكأنَّه جبل ؛ فالرجل ابن الطفل ، وأكثر ما يحقِّقه الرجال والشيوخ أحلام تساورهم وهم أطفال ؛ فأحلام الطفولة هي حقائق الرجولة ، وإذا أردت أن تعرف الرجل فابحث عن أسرار عظمته في طفولته .

وقد كانت حياة هذا الزعيم الفذِّ آيةً ؛ بدأت في الرابع عشر من أغسطس سنة ١٨٧٤ ، وانتهت في العاشر من فبراير سنة ١٩٠٨ . حياة عظيمة وقصيرة

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية لعمر بن علي البزار صـ ١٧ – المكتب الإسلامي .

دامت أربعًا وثلاثين سنة .. وهذا الزعيم كان متميزًا في خطِّه الإسلامي وانتمائه واعتزازه بدولة الخلافة ، وهو بهذا ينفرد عن غيره .. كان يصاحب أباه في طفولته في صلاة الفجر ، واستطاع أن يحفظ وِرْدَ السَّحَر .

كانت رسالة مصطفى كامل ذات ثلاث غايات يجمعها جميعًا هدف واحد :

الأولى : كره الاحتلال البريطاني ورفْض احتماله أو السكوت عليه ، واعتباره بلاءً وكارثةً وعارًا .

الثانية : إقناع المصريين بأن إجلاء الاحتلال البريطاني عن مصر ممكن ، وأنه من غير المستحيلات .

الثالثة: أن مصر عظيمة وجليلة ورائعة وجديرة بكلِّ حبٍّ وولاء وفداء.

يكتب مصطفى كامل : « إني أبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة ، وأريد أن أكتب وأخطب وأنشر الحميَّة والإخلاص اللذين أشعر بهما في سبيل رفْعَة الوطن » .

يقول رحمه الله في رسالته إلى أخيه : « اعذرني أيها العزيز فإني أُتْعب نفسي ليلًا ونهارًا ، وإنْ كان هذا التعبُ لا يُذكر في جانب ما علينا لوطننا المقدَّس من الواجبات ، فلو رأيتني الآن لرأيت مصريًّا يحترق قلبُه لرؤية أمتِهِ سعيدة ، مالكةً زمام أمرها ، ووطنه مستقلًا رفيع المنزلة . تراني حركةً مستمرة ؛ تارةً أُحادث ، وتارةً أُكاتب ، ومرة أزور ، وحينًا أُهاجم وحينا أدافع . أما صحتي فلم يطرأ عليها تغيير ، وهب أنه طرأ عليها شيء ؛ فإن من يبذل الروح وهي الجوهر ، لا يبالي بالجسم وهو العَرَض » .

يقول رحمه الله : « إنِّي لا أنال صغيرًا ولكنّ لي أطماعًا جمامًا ، فإني أُريد أن أوقظ في مصر الهرمة مصر الفتاة » .

وقال : « لا معنى للحياة مع اليأس ، ولا معنى لليأس مع الحياة » .

وقال : « إنَّ من يتسامح في حقوق بلاده ولو مرة واحدة ؛ يبقى أبدَ

الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان » .

وقال : « لو انتقل فؤادي من الشمال إلى اليمين ، أو تحوَّلت الأهرام عن مكانها ؛ لما تغيَّر لي مبدأ ولا تحوَّل لي اعتقاد » .

وقال : « مهما تعدَّدت الليالي ، وتعاقبت الأيام ، وأتى بعد الشروق شروق وأعقب الغروب غروب ؛ فإننا لا نملُّ ، ولا نقف ، ولا نقول أبدًا : طال الانتظار . لو تخطَّفنا الموت من هذه الدار واحدًا بعد واحد ، لَكانت كلمتُنا لمن بعدنا : كونوا أسعدَ حظًّا منا ، ليبارك الله فيكم ، ويجعل الفوز على أيديكم »(١) .

رحمك الله ؛ فَلَكَمْ زَلْزَلْتَ أركان الإمبراطورية البريطانية الصليبية بخُطَبَكَ وصوتك !!

ولله درُّ حافظ إبراهيم حين يقول في رثاء مصطفى كامل :

أَيَا قــبرُ هذا الضيفُ آمالُ أُمَّــةٍ ... فكبِّرْ وهَلِّلْ والْقَ ضيفَكَ جاثيا
عزيزٌ علينا أنْ نرى فيك «مصطفى» ... شهيدَ العُلا في زهرةِ العُمْرِ زاويا
أيا قبرُ لوْ أنّا فقدناه وَحْدهُ ... لكانَ التأسِّي من جَوَىٰ الحزْنِ شافيا
ولَكنْ فقدنا كلَّ شيءٍ بفقْدِهِ ... وهيهاتَ أنْ يأتي بهِ الدهرُ ثانيا
فيا سائلي أين المروءة والوفا ... وأينَ الحِجا والرأيُ ويْحَكَ ها هيا
هنيئًا لهُ فلْيأمنوا كل صائحٍ ... فقدْ أُسكِتَ الصوتُ الذي كان عاليا
ومات الذي أحيا الشُّعور وساقَهُ ... إلى المَجْدِ فاستحيا النفوسَ البواليا
مدَحْتُك لمَّا كنتَ حَيًّا فلم أُجِدْ ... وإني أُجيدُ اليومَ فيكَ المَرَاثِيا
عليك وإلّا ما لذا الحزنِ شاملًا ... وفيكَ وإلَّا ما لذا الشعبِ باكيا
يموتُ المداوي للنفوس ولا يرىٰ ... لما فيه من داء النفوس مداويا
وكنَّا نيامًا حينما كنتَ ساهِدًا ... فأسهدْتَنا حزْنًا وأمسيتَ غافيا

(١) مصطفى كامل لفتحي رضوان ، سلسلة « اقرأ » .

شهيدَ العُلا لا زال صوتُك بيننا يَرِنُّ كما قد كانَ بالأمس داويا
يهيبُ بنا: هذا بناءٌ أقمتُـهُ فلا تهدموا باللّٰه ما كنتُ بانِيا
يصيحُ بنا: لا تُشعِروا الناسَ أنني قضَيْتُ وأنَّ الحيَّ قد باتَ خاليا
يناشدنـا بـالله ألَّا تَفَرَّقـوا وكونوا رجالًا لا تسُرُّوا الأعاديا
فيا نيلُ إنْ لم تجر بعدَ وفاتِهِ دمًا أحمرًا لا كنتَ يا نيلُ جاريا
ويا مصرُ إنْ لَمْ تحفظي ذكْرَ عهدِهِ إلى الحشْرِ لا زالَ انحلالُكَ باقيا
ويا أهلَ مصرٍ إنْ جهلتم مُصَابَكمْ ثِقُوا أنَّ نجمَ السَّعْدِ قد غار هاويا
ثلاثونَ عامًا بلْ ثلاثونَ درَّةً يُجيد الليالَي ساطعاتٍ زواهيا
ستشهدُ في التاريخ أنَّكَ لم تكنْ فتًى مفرَدًا بلْ كنتَ جيْشًا مُغازيا(١)

هؤلاء فتية الإسلام :

وقفوا على هامِ الزمانِ رجالًا يتوثَّبـون تطلُّعـا ونِضالا
وحْي السماءِ يجيشُ في أعماقِهمْ ونداؤُهُ منْ فوقِهِ يتعالـى
باعوا النفوسَ لربِّهمْ واستمسكوا بكتابِهِ .. واستقبلوا الأهوالا
في وَقْدةِ الصحراءِ في فَلَواتِها حملوا تكاليفَ الجهادِ ثِقالا
تُشوىٰ على رَمْضائها أجسامُهُمْ لكنَّهم لا يعرفونَ مُحَالا
فامتدَّ في شرقِ البلادِ وغربِها نورٌ تتيهُ بِهِ الحياةُ جمالا
فتشبَّهوا إنْ لم تكونوا مِثْلَهُم أُسْدًا تُخَلِّفُ بعدها أشبالا

* * *

(١) ديوان حافظ إبراهيم .